الدكتور فخرالدين قباوة

بحوث ودراسات في
علوم اللّغة والأدب

٣

المهارات اللُّغوية

وعُروبة اللسان

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

LINGUISTIC SKILLS & TONGUE ARABISM

Al-Mahārāt al-Lughawīyah wa-'Urūbat al-Lisān

Dr. Fakhr al-Dīn Qabāwah

هذه السلسلة الرشيقة حصيلة عدة عقود ، من المطالعة والدرس والتدريس والبحث والتحقيق ، في ميادين النحو والصرف والأدب القديم . ولقد توضعت في حلقات متآخية ، تقدم للناس خبرة شخصية ، وتجارب علمية وفنية ، لخدمة لغة القرآن الكريم ، وما يدور حولها من العلوم والآداب .

إنها ثمرة معاناة طويلة ، ونثار تمرس كبير ، وصدى لجهد مديد ، يتتبع الموضوعات الجانبية المعاصرة ، بالتنقيب والتحليل والتركيب ، للوصول إلى نتائج إيجابية قريبة من الصواب ، وتحل بعضاً من مشكلات الواقع اللغوي أو الأدبي . وقد يسر الله ـ عز وجل ـ لذلك كله أن ينتظم في سلك واحد ، كتيبات خفيفة لطيفة ، مع ماله من اختلاف وتباين ، وثقل في ظاهر الأمر .

ولسوف يرى القارئ لهذه السلسلة ـ إن شاء الله ـ معلومات متنوعة ، تتناول مسائل بعيدة عن التحقيق للتراث ، وعن التأليف في واسع البحوث المتخصصة ، وتعالج المشكلات والقضايا بأسلوب هادف جاد ، وتفكير موضوعي حصيف . وستكون أصداؤها رديفاً لما نشره المؤلف ، من مصادر تراثية محققة ، وبحوث علمية مصنفة ، للسير في خط واحد ، هو العمل العلمي الكريم .

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-674-6

الدكتور فخر الدين قباوة

المهارات اللغوية

دار الفك

ن ٤/١١٠
١٢/٤

الدكتور فخر الدّين قبادة

ولد في حلب سنة ١٩٣٣ ، ونال فيها الشهادة الثانوية ، وأهلية التعليم الابتدائي ، مع مزاولته للمهن الحرة . ومن جامعة دمشق حاز الإجازة في علوم العربية ، وأهلية التعليم الثانوي ، والدبلوم الخاصة في الإدارة والتفتيش التربوي ، بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٠ . وفيها أعد رسالة للماجستير في التفتيش التربوي . ومنحته جامعة القاهرة درجة الماجستير ثم الدكتوراه في الأدب القديم ، سنة ١٩٦٦ .

درّس الأدب القديم والنحو العربي ومنهج البحث ، في جامعات حلب واللاذقية وبكين وفاس والعين والقصيم ، وأشرف على رسائل لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب والنحو ، وشارك في لجان التحكيم لها ، وفي لجان علمية وثقافية ، وندوات ومؤتمرات عربية وإسلامية ، وتقويم إنتاج بعض الزملاء وبحوث علمية للمجلات المحكمة ، وانتخب عضواً في بعض المجامع العلمية .

أصدر عشرات من الكتب ، في الأدب والإعراب والصرف والعروض ، وعشرات من المقالات العلمية في الدوريات العربية والإسلامية . وهو أستاذ الأدب القديم والنحو في جامعة حلب ، ويعد الآن تحقيق (تفسير الجلالين) ، باعتماد نسخ خطية ، والمصادر التي اعتمدها الجلالان في تصنيف تفسيرهما ، ليكون بين أيدي الناس مضبوطاً وميسراً ، مع إلحاق أسباب النزول بمواضعها اللازمة لها ، وتوثيق الأخبار ، وتقويم الإسرائيليات ، وتفصيل للإعراب والصرف ومعاني الأدوات ، وتعقب لما وقع للمؤلفين ، من سهو في النقل والتفسير وعلوم العربية ، وتلفيق للعبارات والأخبار ، واختيار لضعيف الأقوال والتوجيهات .

٢٤٢٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المهارات اللغويّة وعروبة اللسان

المهارات اللغوية وعروبة اللسان / فخر الدين قباوة. -
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩. - ١٤٤ ص؛ ٢٥سم.
(سلسلة البحوث والدراسات في علوم اللغة والأدب؛ ٣)
١- ٤١٠,٧ ق ب ا م ٢- العنوان ٣- قباوة
٤- السلسلة مكتبة الأسد
ع- ١٥٢٦/ ٩/ ١٩٩٩

سلسلة البحوث والدراسات
في علوم اللغة والأدب

٣

الدكتور
فخر الدين قباوة

المهارات اللغويّة وعروبة اللسان

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي : ١٣٠٥,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-674-6
الرقم الموضوعي: ٤١٠
الموضوع: اللغة العربية
العنوان: المهارات اللغوية
وعروبة اللّسان
التأليف: د. فخر الدين قباوة
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٤٤ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
المقدمة	٩
١ ـ المهارات اللغوية ـ واقع عصيب وصحوة مباركة :	١٥
واقع المهارات اللغوية :	١٦
مناخ لغوي موبوء	١٨
داء لغوي عضال	٢٣
صحوة مباركة :	٢٩
نافذة النجاة	٢٩
براءة العربية	٣٢
٢ ـ عوامل التنمية لمهارات العربية الفصحى :	٤١
عوامل التنمية للمهارات اللغوية :	٤٤
١ ـ السنّة النبوية	٤٤
٢ ـ الممارسة العملية	٥٥
٣ ـ الاعتزاز بالعربية	٦٠
٤ ـ القدوة الرائدة	٦٥

الموضوع	الصفحة
٣ ـ العربية بين التعليم وتكوين المهارة اللغوية :	٦٩
أهداف تعليم لغة الأمة	٧٠
الواقع اللغوي للعربية	٧٢
عوامل الضعف اللغوي	٧٣
مساعي الإصلاح	٧٥
تكوين المهارات اللغوية	٧٧
١ ـ المناخ اللغوي الفصيح	٧٧
٢ ـ القدوة الصالحة	٧٨
٣ ـ توجيه المصادر المقروءة	٨١
٤ ـ الكرامة والمسؤولية	٨٦
العوامل المساعدة	٩١
٤ ـ وظيفة القرآن الكريم في الدرس النحوي وتكوين المهارات اللغوية :	٩٣
١ ـ دعوى انصراف النحاة عن القرآن الكريم	٩٣
٢ ـ إخراج قواعد نحوية من القرآن الكريم	٩٤
٣ ـ النحو القرآني والنحو من كلام العرب	٩٥
٤ ـ دقائق نحوية غفل عنها النحاة	٩٦
٥ ـ إعجازات نحوية وبلاغية	٩٧
٦ ـ النحو العلمي والنحو العملي	٩٩
٧ ـ تقويم مناهج النحو السائدة	١٠٢
٨ ـ المستقبل المشرق للنحو العربي	١٠٣
٥ ـ اللغة العربية الفصحى ـ أسباب انحدارها وعوامل النهوض بها :	١٠٩
أسباب الانحدار :	١٠٩
١ ـ العامية والثقافة	١١٠

الموضوع	الصفحة
٢ ـ انحدار الفصحى	١١١
٣ ـ ثنائية لغوية	١١٢
٤ ـ لغة هجينة	١١٣
٥ ـ مناهج قلقة	١١٤
٦ ـ العلوم الإنسانية	١١٤
٧ ـ التعليم بالعامية	١١٥
٨ ـ اختبار الذاكرة	١١٥
٩ ـ قدوة هزيلة	١١٦
عوامل النهوض :	١١٨
١ ـ سيادة الفصحى	١١٩
٢ ـ العزة القومية	١١٩
٣ ـ دعوات مشبوهة	١٢٠
٤ ـ مرحلة انتقالية	١٢١
٥ ـ إعداد وتقويم	١٢٣
٦ ـ كتب التعليم	١٢٤
٧ ـ كتب الثقافة	١٢٦
٨ ـ السياسة التعليمية	١٢٨
٩ ـ لغة التعليم	١٢٩
١٠ ـ العربية والعلوم والفنون	١٢٩
١١ ـ الضبط والترقيم	١٣١
١٢ ـ العربية والامتحان	١٣٢
١٣ ـ العربية ورجال التعليم	١٣٣

الموضوع	الصفحة
٦ ـ لماذا هي خالدة خلود الإنسان :	١٣٧
مرحلة الشباب والشيخوخة	١٣٧
عودة الروح والشباب	١٣٩
تمرد على القانون	١٤٠
أسرار التجدد والخلود	١٤١

المقدمة

ربنا لك الحمد كاملاً خالصاً ، والفضل كل الفضل ، أن جعلت القرآن الكريم عربياً مبيناً ، وخصصت العرب بالذكر والشرف ، واخترت منهم خاتم الرسل ، يبلغ الدعوة ويثبّت العقيدة والشريعة بأنصع البيان وجوامع الكلم . عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، وعلى إخوانه الأنبياء والرسل أجمعين ، وأهل بيته وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن المهارة اللغوية هاجس إنساني يلازم كل أمة ، في ميادين البحث والعمل والتعبير . ذلك لأن هذه الخاصة الحيوية العزيزة تمثل ذروة ما كرَّم به الله ـ تعالى ـ جنس البشر ، وتقتضي توليد المَلَكة اللسانية ، وتقويمها وتنميتها ورعايتها بالتجدد والإغناء والكفاية ، ليواكب المرء لغة قومه ، في الخطاب والفهم والعمل والإنتاج العلمي أو الأدبي .

وقد حرصت الأمم منذ قديم الزمان على نقل التجارب اللغوية إلى الأجيال المتعاقبة ، للحفاظ على مسيرتها في التاريخ ، وتغذيتها بما يتجدد من الحاجات والطموحات . وبهذه المهارة المتجددة الواعدة ، يُحفظ التراث والحضارة والعلوم والمعارف والآداب والأعراف وأساليب الحياة ، ويرتبط الماضي بالحاضر ، إعداداً وتمهيداً للمستقبل المشرق النابض بالحيوية والعطاء .

وإنما تبدأ نبضات المهارة هذه بممارسات الأمّ لهواياتها ، في مداعبة الطفل وتغذيته

بالحنان والخطاب الغنائي الحنون ، والتدريبات الصوتية المتتابعة . ثم يشارك في ذلك أتراب الطفولة والبيئة المحيطة ، بما يتولد من الحوار والمداعبات ، فالمدرسة والمجتمع بما فيهما من وسائل التعليم والثقافة . وبذلك تأخذ الْمَلَكة اللغوية أبعاداً عملية واسعة ، لتصبح مهارات متعددة ، تحيط بالنشاط الإنساني الكبير .

أما عروبة اللسان فهي اللغة القرآنية الخالصة ، بما تحمله من فصاحة الكلم وبلاغة التعبير وبراعة الأداء ، ويُسر التداول والتواصل والإبداع ، وقد أمرنا النَّبي ﷺ ، لما فيها من قيمة في شخصه الكريم والقرآن العظيم ويوم القيامة ، أن نحبَّ أصحابها ونكرمهم ، حين قال : « **أحِبُّوا العَرَبَ لِثَلاثٍ : لأنِّي عَرَبِيٌّ ، والقُرآنَ عَرَبِيٌّ ، وكلامَ أهلِ الجَنّةِ عَرَبِيٌّ** » .[١] ثم أوضح لنا أنها رابطة لسانية توحِّد بين أفراد الأمة ، وليست نسباً قومياً نرجع إليه في الآباء والأجداد . وذلك في قوله : « إنَّ العَرَبِيّةَ لَيسَتْ بأبٍ واحدٍ ،[٢] لكِنَّها لِسانٌ ناطِقٌ » . وزادها شرفاً أن جعلها سُنّة نبوية مؤكدة ، بممارستها في جميع المواقف ، قولاً وفعلاً وإقراراً ، وأمراً بعروبة الكتابة والقراءة والخطاب .

وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بشَّرنا بحفظ هذه اللغة الكريمة ، والأمة التي تتولاها وتمارسها وترعاها ، إذ تكفَّل بالحفاظ على الذكر القرآني الشريف ، الذي يصونه لسانٌ ناطق وأمة واعية . ولهذا نرى لغتنا الحبيب تتجاوز كل العراقيل والصعوبات والمؤامرات ، فتشرئب دائماً من بين الأثقال ، مندفعة بقوة وحيوية وانطلاق ، لتستعيد قدراتها على العطاء والنماء والبقاء ، خلافاً لما تخضع له سائر اللغات الإنسانية في الوجود .

ونحن ، عرباً ومسلمين ، مطالبون بمتابعة الحفاظ على هذه المنحة الإلهية الغالية ، ورعاية المهارات التي تحيط بها ، خطاباً وتلقّياً وكتابةً وتعليماً وأداء للعلم والمعارف .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والطبراني في معجمه الكبير ، وذكر السيوطي أنه حديث صحيح . انظر المستدرك ٤:٨٧ والجامع الصغير ١:١٧ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤:٣٠٠ . وفي مطبوعته : « باباً واحداً » ، خلافاً لما جاء في الأصل المخطوط .

وإنك لترى وتسمع أوصياء العروبة اللسانية ، يتنادون ويحتشدون زمراً وجماعات ، ويقيمون الندوات والمؤتمرات والأبحاث والدورات ، لتنمية هذه المهارات وصيانتها من الضعف أو الانحراف . وكان لي حظ المشاركة ، في كثير من تلك النشاطات المختلفة ، فلمست عجزها عن أداء الواجب وتحقيق المراد . وذلك لأنها تقوم على مقاصد إعلامية ، وتَكثُر فيها المحسوبيات ومنازع الصداقة والمنافع الشخصية ، مع استعراض المحامد والمآسي ، والتوصيات النظرية المتكاثرة ، وتداول الموضوعات بلهجات محلية ممقوتة .

وقد عوضنا الرحمن ، من هذه العمليات الإعلامية المغرضة القاصرة ، قدرة ربّانية خارقة تتمتع بها لغتنا الكريمة ، لتستعيد في كل زمان حضورها وقدراتها وكامل أبعادها ، في تأدية الواجبات اللغوية المعطاء . وها أنت ذا تتمتع بعروبة اللسان ، بعد أن غمرك الأعاجم عشرات العقود ، برَطاناتهم والطُّمطمانيات القوية القاهرة . وما هذه الصحوة اللغوية المباركة إلاّ النفحة الرَّبانية ، ترعانا وتُمدنا بالعون والتمكن والاقتدار . ولذلك فنحن مطمئنون إلى سلامة عروبة اللسان ، من آفات الاستغراب واللهجات المحلية ، والغزو بالثقافات واللغات والحضارات .

وهذه نفحة من رحمة الله ـ عزّ وجلّ ـ تنضم إلى « سلسلة البحوث والدراسات » باقةَ عمل طيب ، ثالثةً في حلقات الخدمة للغة القرآن الكريم ، فتحقق لدى الزملاء الراضين والغاضبين أننا حريصون فعلاً ، على فصاحة العربية وصفائها من كل شائبة ، وأننا نؤثر البحث والإنتاج الإيجابي ، على الانشغال بالجدل والمطارحات الكلامية النابية ، فيما حظَّره بعض مدّعي الوصاية ، لنتابع المسيرة التي هيّأها الرَّحمن لنا ، ورضيناها بالحمد والشكر والعتبى حتى يرضى .

إنها جهود عشرين سنة ، في حقل التقويم للمهارات اللغوية ، بحثاً ومحاضرة وحواراً وكتابة ، بعد خدمة ثلاثين سنة أيضاً في التعلُّم والتعليم والتدريس ، لهذا اللسان العربي المبين . وقد بسطتُ في أرجائها تشخيصاً لظواهر الأدواء وبواطنها ، وصورتُ

معالم الضعف والفتور ، وحلَّلتُ مكوّنات العجز والتقصير ، وكشفتُ مسارب التضليل والأوهام الرائجة ، ثم وضعتُ وصَفات التطبيب والشفاء ، بالأدلة الموضوعية القاطعة موثقة بالمصادر المعتبرة ، وبالتوجيهات العملية الناجعة مصحوبة بأساليب التحقق والنفاذ . كلّ هذا على أمل أن ندرك حقية الواقع الحاضر ، ونتخلى عن الشعور باليأس والإحباط ، ونتعاطى الوصَفات معاً ، لتحقيق الصحوة اللسانية المباركة .

ولقد عرضت ذلك كله في موضوعات متوالية ، يساعد بعضها بعضاً على تحقيق الغاية المرسومة . ألا وهي التفاؤلُ بالخير والتبشيرُ برسوخ عروبة اللسان ، على رغم النكبات الأعجمية والغزوات الطُّمطمانية المتوالية . ولذلك لم أتَّبع في تنسيق الموضوعات الترتيب الزمني لولادتها ، وآثرت أن أقدم منها ما هو بشارة وفأل حسن ، وأختم الباقة بما يثبت الخلود والصفاء للغة القرآن الكريم ، ويرسِّخ في نفوس الحاقدين والمخرِّبين جذور اليأس والقنوط . وإذ ذاك يتركون ما هم عليه من السَّعي المشؤوم مرغَمين ، وينقاد لنا سبيل الصلاح والصفاء .

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه النظرات المتتابعة صدرت على مراحل زمنية متباعدة ، فكان فيها ما يمثل الظروف المعاصرة لكل منها . ولذا جعلتُ ما فيه بعض الضيق متوسطاً بين طرفي التفاؤل والبشارة ، تنطوي معالمه وتخف آثاره في النفوس . وقد ترى شيئاً من التكرار ، لبعض المعلومات والأحداث . ويشفع له ما يكون فيه من اختلاف في أساليب العرض ووجهات النظر والتوظيف ، لتتعاون جميع الوسائل على تحقيق الغاية المنشودة .

والجدير بالذكر أن مشكلة عروبة اللغة قديمة متجددة . فقد ظهرت بوادرها ، في أواخر القرن الهجري الأول ، بصور لمظاهر الاختلال صوتاً أو دلالة أو صيغة أو تركيباً ، على ألسنة الموالي وأقلامهم وأفهامهم ، وانتقلت آثارها إلى أبناء العروبة . فكان أن قام رجال العربية بمحاصرة المشكلة ، والتوجيه إلى الفصاحة والسداد ، في

معاجم ورسائل وكتب وافرة ، عرضنا لبعضها في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .[١] وقد استمرت هذه النزعة التوجيهية في القرون التالية ، وبقيت آثارها تتجدد حتى عصرنا هذا ، في تتبع للعثرات والسقطات والأغلاط والأوهام ، بأشكال مختلفة من التصنيف والتأليف ، دخلها كثير من التَّعنت والتحكم واستعراض العضلات .

وعندما اشتد ساعد البحث النحوي ، في أواخر القرن الثاني ، وصار له كتب مطولة وأحكام متكاثرة وتفريعات متباعدة ، تعالت أصوات تشكو كبريات الصعوبات ، وتنادي بضرورة التيسير ونزع مظاهر العسر والتعقيد . وهذا ما دفع النحاة أنفسهم إلى تصنيف رسائل وكتيبات ، تخدم تلك القضية ، وتطمئن النفوس ، وتهون على الدارس سبل التَّلقي والاستيعاب .

وعن هذه الجهود الكريمة ، صدرت أمثال : « مقدمة في النحو » لخلف الأحمر ، و « الجُمل » للخليل ، و « التصريف » للمازني ، و « المقتضب »[٢] للمبرد ، و « الموجز » لابن السَّرّاج ، و « الجُمل » للزّجّاجي ، و « الإيضاح » للفارسي ، و « الواضح » للزّبيدي ، و « اللُّمع » لابن جنّي ، ومختصرات نحوية تحت اسم « مقدمة » لمثل ابن بابشاذ وأبي الحسن المجاشعي والخطيب التبريزي وغيرهم من الأعلام .

وقد تتابعت الخطوات ، إلى يومنا الحاضر أيضاً في هذه السبيل ، تحاول إزالة العثرات ونزع بوادر العسر والمشقة ، وتقترح الحلول النظرية والعملية ، وفيها الغثّ

(١) تطور مشكلة الفصاحة ص ٢٤ ـ ٣٧ والحركة اللغوية في الوطن العربي للدكتور شكري فيصل ص ١٥٠ ـ ١٦٧ .

(٢) الواقع أن « المقتضب » هو كتاب موجز لا يتجاوز ٢٠٠ صفحة من القطع العادي . غير أن نشره محققاً أضفى عليه تعليقات ضخمة غير ضرورية ، وفهارس مطولة ، جعلته غير مقتضب . وقد كتبنا في هذا مقالاً منذ سنوات ، نبين ما يمثله النشر الفضفاض للتراث ، من ترهيب وتنفير . انظر ص ٨ من عدد ١٩٨٨/٩/١٢ لصحيفة البيان بدبيّ .

والسمين من ألوان الدعوات والتوجهات .[١] وها نحن أولاء نواصل المسيرة ، بأسلوب الناقد الأمين المصلح ، الحريص على نقاء عروبة اللسان ، فنقدم حصيلة التجارب والتطلعات ، بما يحقق الأمل المنشود ، إن شاء الله ، تعالى .

وإنني لأرجو من المولى ـ جلّ ذِكره ـ أن يفتح الصدور لما نرسم ونقول ، ويبارك خطانا بالسداد والتوفيق ، ويجزينا في الدنيا والآخرة ما هو أهل لهِ من الإكرام والإحسان . إنه نعم المولى ونعم النصير ! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

حلب ، في ١٩٩٩/١/٢٢
١٤١٩/١٠/٥

الأستاذ فخر الدين قباوة

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ٣٧:٥٨ ـ ٤٦ و ٢٣٦:٧٠ ـ ٢٤١ و٢٥١ والحركة اللغوية في الوطن العربي ص ١١٧ ـ ١٣٣ وفهرست الكتب النحوية المطبوعة ص ٥٢ ـ ٧٠ وتيسير النحو في ١٦٩:٣ ـ ١٧٢ و ١٩٩ ـ ٢٠١ من كتاب « في أصول اللغة » ، وسلسلة المحاضرات العامة بجامعة الإسكندرية ص ١٨٩ ـ ١٩٨ لعام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ و « بحوث وباحثون » ١٤٨:٢ ـ ١٤٩ ، وكتب : النحو الجديد ، وتحرير النحو العربي ، وتيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً ، وتجديد النحو ..

١

المهارات اللغوية
واقع عصيب وصحوة مباركة

يتلقى الطفل لغته من البيئة الاجتماعية المحيطة به ، أمه وأبيه وإخوته وأقاربه وجيرانه والمذياع والتلفاز ، فيتلقف أساليب التعبير الصوتية والصرفية والنحوية ، يستوعبها بقدرة فائقة ، ويختزنها في ذاكرته وفكره وجهازه الصوتي . فقد منحه الله ـ سبحانه وتعالى ـ هبة عالية للإدراك والتنظيم والتقليد ، ساعدَتْه على الاستيعاب والإنجاز ، ويسرَتْ له ترداد ما في ذاكرته وفكره من صيغ وتراكيب ، وهيأتْ له القدرة على توليد كثير من الكلمات والجمل قياساً على ما استوعب وأنجز من قبل . ولهذا تراه ينتج أحياناً من التعبير ما لم يكن قد سمعه ، وهو على غرار أساليب لغة قومه وأمّته . إنه كِبتارٌ[1] حيٌّ يختزن المعلومات ، وينسج على منوالها فيما يجدّ له من مواقف ومشكلات .

حتى إذا انتظم في مقاعد الدراسة كان له مصدر لغوي آخر . إنه المعلم الذي يلقنه ويدربه ، والكتاب الذي يرافقه ويعلمه ، ووسائل الإيضاح السمعية والبصرية التي تسهم في تقويم المهارة اللغوية وتغذيتها بالقويم السديد من الكلام ، وزملاؤه في المدرسة يحاورونه ويبادلونه تلك المهارات . لقد كان من قبلُ يتلقى اللهجة العامية غالباً ، ويستخدمها في قضاء حاجاته وأحاديثه . أما الآن فقد تدخَّلت في مهارته لغة أقرب إلى الفصاحة ، وأكثر انقياداً للضوابط والقوانين . وبذلك تتجه مهارته اللغوية نحو الفصيح من الكلام ، والصحيح من التعبير والأداء اللغوي .

---

(١) الكبتار : تعريب ما يعرف بالكمبيوتر ، على قياس درباس وغربال وتلفاز . ويقال منه : كَبتَرَ يُكبتِرُ كَبتَرةً ، فهو مُكبتِرٌ .

واقع المهارات اللغوية

ذاك عرض نظري لما يكوّن القدرات التعبيرية عند الأطفال . غير أننا إذا تتبعنا ما يحيط بهم من واقع لغوي نجد انحرافاً كبيراً في الخط الذي رسمناه . فالبيئة الاجتماعية ما تزال تغذيهم بما يخرّب نتائج التعليم الدراسي ، ويشد ألسنتهم إلى مسارب العامية والعجمية واللحن . وقد رأت عمادة كلية العلوم العربية والاجتماعية ، من جامعة الإمام في القصيم ، أن تدرس هذا الواقع مشكورة مأجورة ، لترى أبعاده وأغواره ، وتساهم في علاجه ، خدمة للإسلام والمجتمع الإسلامي . ذلك لأن عربية القرآن والدين الإسلامي **ومجتمعه لا ينفك واحد منها عن الآخَرين ، وخدمة كل منها هي خدمة للمجموع .** فكان أن أقامت ندوة علمية بإشراف اللجنة الثقافية في هذا العام الدراسي ،[1] شارك فيها زملاء أكارم مختصّون في اللغة والنحو والأدب والنقد .

دعوات مشبوهة :

وقد تبدّى ، مما بسطه هؤلاء العلماء والأدباء ، أن اللغة العربية تعاني واقعاً مريراً ، يهدّدها بالانحلال والانقراض . فالأصوات تتعالى بالهجوم على الفصحى والترويج للّهجات المحلية ، باتهام اللغة العربية أنها عسيرة معقدة ، وقواعدها وضوابطها كثيرة مشتتة ، يتعذر على الأجيال استيعابها والانقياد لها في حياتهم اللغوية ، إن أرادوا الإبداع والانطلاق في التعبير علماً وأدباً وثقافة . وقد تيسَّر النجاح لهذه الدعوة نجاحاً تامّاً ، في بعض البلاد الإسلامية . أعني ما كان على أيدي الاتحاديين في تركية ، حيث انحسرت العربية تماماً بعد حضور ملحوظ ، وسادت لغة ملفقة من العامية المحلية والعربية الملحونة والأوربية المستوردة .

---

(١) أي : عام ١٤١١ .

واستجابت بعض الأوساط في بلاد العرب لهذه الدعوة المريبة ، فأنشأت صحفاً وأدباً للّهجاتِ العاميّة ، وشجعت الإنتاج الشعبي للزّجل والشعر النبطي ، وشكلت لجاناً وخبراء لدراسة تلك اللهجات ، وجعلها قَدَراً علمياً ذا أبجدية وضوابط ، يخضع لها أصحاب البيئات المختلفة من بلاد العرب . وكان لجامعة جنيف ـ وهي ذات صفة علمية ـ الصوت العالي في إثارة هذه النعرة والتشجيع عليها ، كما ساهمت جامعات أوربية كثيرة في تنشيط الدراسة للّهجات المحلية ، في مدن الأقطار العربية وضواحيها وقراها . كل ذلك تآمرٌ على لغة القرآن وأمة الإسلام والتاريخ والحضارة والتراث .

فالشعوبية ما زالت تمد رؤوسها في ثياب المستشرقين أو المستغربين ، الذين يبذلون الجهود الضخمة كيداً للإسلام والمسلمين ، للقضاء على رموز حياتهم ومقومات الحاضر والمستقبل . فهم عندما تجندوا ، لزعزعة الدولة العثمانية ، رفعوا شعار القوميات وشجعوا الدعوات المساندة لها ، ومنها صيانة اللغة العربية واللغة التركية واللغة البربرية ... حتى إذا تمَّ لهم ذلك فتحوا باباً جديداً ، لتفتيت جسم كل قطر عربي بالحدود السياسية ، وبعث المقومات العامية لكل بيئة أو مدينة أو قرية ، وتنشيط الأقليات غير العربية لفرض لغتها والتخلي عن لغة العرب والإسلام .

وقد اصطنع سماسرة هذه الدعوة لها مسوغات وصفوها بالموضوعية ، منها أن اللهجة لغة السواد الأعظم من الناس الذين من حقهم الإبداعُ بها والقراءة والكتابة ، وأن ما يذخر به التراث الشعبي قمين بالاهتمام والدراسة العامية ، صيانة لتاريخ الشعوب ، وحفاظاً على واقع حضاري موروث لا يجوز تجاهله أو التفريط فيه .

وإذا كان في تلك الأصوات نصيب كبير من النّيات الفاسدة ، ومقاصد التهديم والتفتيت ، فإنّ ثمة لوناً آخر من الدعوات السليمة الطوية ، ساهم في تضييق سيرورة الفصحى وسيادتها . ومن ذلك ما نراه ونسمعه في وسائل الإعلام السمعية والبصرية ، من سيطرة العامية وسلطانها . حتى إنا لو رصدت ما يُلقى في الإذاعات العربية

والتلفزات والصحف والمجلات المعدة للأطفال ، والنشرات والدعايات واللافتات والشعارات والأناشيد والمسرحيات ، لرأيت أن نسبة العامي فيه تتجاوز الخمسين في المائة . ولا شك أن الأطفال واليافعين والشباب يختزنون تلك الأساليب ويَجرون على منوالها ، فتصطرع في أذهانهم وألسنتهم فصاحة العربية ورَطانة العامية ، ويكون لديهم مزيج لغوي هجين يولد العجمة والفساد .

مُناخ لغوي موبوء :

أضف إلى هذا كله أن ما يسمعه الإنسان العربي في بيئته ظهير لذلك اللون الهجين . فإذا جمعتَ بينهما طغت نسبة العامية ، وكان لها أكثر من تسعين في المائة . ولا غرو أن ترجَحَ كفةُ الوباء اللغوي ، ويتعذر على العلماء علاج أشكاله وألوانه المتعددة والمتداخلة .

وقد شايع هذا الواقعَ الموبوء انحسار الاعتزاز بالعربية ، خلافاً لما كان عليه أجدادنا القدماء . إنهم يعتقدون أنهم أصحاب اللسانِ المبين وأكرمِ اللغَات وأسماها وأحقّها بالتقديس والإكبار ، والفصاحةُ لهم دون سائر الأعاجم ، وآدابُهم الجاهلية والإسلامية لا تدانيها فلسفات الأمم وعلومها . فغير العرب أعاجم ولغتهم عجمة ورَطانات وطُمطُمانية ، قد يدرسها الإنسان العربي ، ويستعين بها في حياته ، لكنها تبقى ثانوية على لسانه ، وهامشية في أدائه وإنتاجه وأعماله الأدبية والعلمية .

إن هذا الشعور هزيل في نفوسنا ، يقابله مدّ زاخر قاهر من الإعجاب باللغات الأوربية ، والتّأثر بها والاقتباس منها ، بمناسبة أو غير مناسبة . وفي هذا انعكاس خطير في الشخصية العربية ، يغلّب كفة الفساد اللغوي . ولو عرف كل منا منزلة العربية ، في الإسلام والوطن والعروبة ، لكان له موقف آخر يغير وجه تاريخ العربية .

أما المهارات اللغوية التي تُملَى علينا ، في المدارس والجامعات ، فتبقى محدودة بالساعات المخصصة لها . ذلك لأن المعلمين والمدرسين والأساتذة ، للمقررات العلمية

والفنِّية والمهنية والعسكرية والزراعية ، يصطنعون لهجات محلية ، ويملون على الطلاب خليطاً من اللحن والعجمة والعامية ، فيكون لهم النصيب الأوفى من تهديم ما يبنيه أستاذ النحو والأدب والبلاغة .

هذا إذا كان ذلك الأستاذ يعتمد اللغة الفصحى في تدريس علوم العربية ، ولا ينساق مع التيار الغالب ، ويركب الأمواج العاتية نفسها ، لتهديم ما يعلِّم من قواعد وأصول وضوابط . وأنت معي أن الطالب يحمل هذا الخليط زاداً له إبان الدراسة ، وفي حرم المؤسسات التعليمية فقط ، ثم له بعد ذلك أن يرتد إلى العامية ، في المنزل والسوق والشارع والملعب والمنتديات والمساجد ، فإذا بما استقاه في تعليمه هامشي هزيل ، يضيع في طيات الأمواج الطاغية .

وأعجب العجب أن بعض المعاصرين يفسرون القرآن العربي المبين ، باللهجات المحلية المغرقة في العامية ، على ملأ من الناس في رحاب المساجد الكبرى . إنهم يتناولون النص الرباني الكريم بأساليب سوقية مبتذلة ، ويكررون على الأسماع ما يسود في الشارع من عبارات شائهة ممجوجة . ثم ترى ذلك وتسمعه من عدة قنوات للتلفزة العربية ، يعاد ويكرر في الأجواء والمجالس والمنازل .

وأخطر من هذا أن تلك التفسيرات قد نشرت بين الناس في كتيبات ، بالأساليب العامية نفسها من دون تعديل أو تعريب ، لتكريس سلطان اللهجات المغرقة في المحلية ، وترسيخ جذورها في النفوس والعقول .

بل إنك إذا رجعت إلى ميادين التعليم ، لتتصفح الكتب المقررة والمصادر والمراجع المُحال إليها ، وقفت على نماذج من العرقلة والتثبيط والتشويه . فكثير من هذه الكتب يعتمد لغة النحاة أو الفقهاء أو المترجمين المعاصرين .

أما لغة النحاة فعسيرة عمادها الحِجاج والجدل والاستدلال والتفنيد والتقعيد ، ويكثر فيها الاستطراد والمعاظلة وتداخل التراكيب والمصطلحات ، مما يعرقل عملية

الوعي والفهم ، ويحمّل الطالب صوراً مشوهة من التعبير والتفكير ، تضيع في متاهاته القواعد والضوابط والشواهد الرفيعة ، وتطغى على هذا كله أمثلة مصطنعة وشواهد مقتسرة ، فيها كثير من الشذوذ والافتعال .

وأما لغة الفقهاء فمكثفة مادتها المصطلحات ، والأحكام المتلاحقة ، والعبارات المعقدة المتداخلة ، والمعاني البعيدة الغائمة ، والإشارات الغامضة ، ينوء بحملها أولو العلم والذكاء . فما قولك في طفل ناشئ أو شاب غَرير ؟

وأما لغة المترجمين فقوامها نقل المعلومات ، دون قدرة لغوية ووضوح وبيان . فأكثرهم يلوك العبارة والكلمات ، ويلقي بها جملاً مقطعة أمشاجاً ومفردات مستعجمة ومصطلحات مستوردة ، بركّة وتهافت وتشتت ، فلا يستوعب الطالب منها إلاّ معاني عائمة ، وتعبيراً شائهاً وتفكيراً موزعاً .

ولا نستبعد ههنا ما يُقرَّر ، من كتب الأدب واللغة والنقد والبلاغة والعروض . فهو غالباً ما يناط بلجان أو شخصيات ذات نفوذ أو قربى ، وتنقصها الكفاية والفصاحة والبيان ، فترى في الكتب ألواناً من التخليط والتعمية والعجمة . بلهَ تلك الأمالي التي يفرضها بعض المدرسين على الطلاب أو يستكتبها بعض من بعض ، فإذا هي نماذج من التقطع والإحالة والطلاسم والمعميات ، مزخرفة بالخطوط والإشارات والألوان البراقة .

ولا شك أن الطلاب سيقرؤون هذه الأمالي وتلك الكتب مراراً وتكراراً ، في ساعات الدراسة وليالي المذاكرات وأيام الاختبارات ، فترسخ في ذاكرتهم وألسنتهم صور المعاظلة والتشتت والسطحية ، ثم تنتقل إلى أقلامهم ، ليصبوها في أوراق الامتحان ، أو إلى أدائهم التعبيري مشافهة فيما يقدمون من حوار ونقاش مع المدرسين .

هذا إذا كانوا قد أتقنوا ما قرؤوا ، ولم يضيفوا إليه ألواناً جديدة من العامية والعجمة . فالمعروف لدى الجميع أن الطالب يقرأ تلك المقررات قراءة صامتة عامية ،

قِوامها تسكين أواخر الكلمات ، والتسمح في ضبط الصيغ والتراكيب ، وإغفال الروابط بين المفردات والعبارات . وذاك دأبه أيضاً فيما يطالع من القصص والمسرحيات والأشعار والصحف والمجلات ، فيأخذ منها المعلومات باللغة العامية الشوهاء ، ويضيف إلى ما فيها من ضعف ضعفاً ، ويصبغها بمزيد من التأتأة والفأفأة والنأنأة .

ولو قُدِّر له أن يرجع إلى كتب التراث لوجد نفسه عاجزاً عن الاستعانة بها . فهي إمّا في طبعات قديمة ، بمتون وحواش وتقريرات متداخلة ، وأسطر كثيفة متلاحقة ، وعبارات تتشابك فيها الأقوال والآيات الكريمة والأشعار ، دون تمييز أو علامات ترقيم أو ضبط مناسب ، فيتعذر على القارئ متابعتها والاستفادة من لغتها وأدائها التعبيري . وإما في طبعات جديدة أنيقة نَفخَ فيها أساطين التحقيق ، فإذا هي صورة من الإرهاب ، يتهيب القارئ أن ينفذ إلى أعماقها ، ويخوض عباب أمواجها الزاخرة .

ذلك لأن الكتاب الصغير الذي تضمه مائة صفحة يصبح بين أيدي المحقق الفاضل ألفاً أو ألفين من الصفحات الزاخرة ، بالأرقام العربية والأعجمية والأقواس الصغيرة والكبيرة والمزهرة والمعقوفة ، والإشارات المبتكرة والتعليقات المتكاثرة ، مغمورة بالتعالم والتفاصح والتفيقه والتكثر والاستطراد .

ولا أغالي إذا قلت : إنك ترى أحياناً أربعة أرقام على كلمة واحدة ، ولكل رقم في الهامش حاشية مطولة ، في اللغة والتاريخ والنحو والتراجم والنقد والتوجيه . وهذا كله يزرع في نفس القارئ رهبة ، تحول دون شراء الكتاب . فإن تجاوز تلك الرهبة واقتناه تهيب أن يطالعه ، واكتفى برصفه في مكتبته العامرة . إنه يخشى أن يستفيد منه ، لأن هذه الْحُلّة المهيبة تحول دون ما يريد .

ولو أنك نزعت عنه تلك التطاولاتِ والحشودَ من الرموز والتعليقات لرأيته ، بالتحقيق اللطيف المناسب ، أنيقاً خفيف الظل شهي الجنى يسير الأداء طيب النتاج . فقد كان بما حمل من الهيبة والوقار مثل « قاضي البصرة » بين يدي الجاحظ ، زِمّيتاً عبوساً قمطريراً . إلاّ أنَّ ذبابة هزت كيانه ، فإذا هو إنسان كسائر الناس .

فالمحب لهذا التراث يهابه ويخاف التمرس به ، والعدوّ له يشمت بما يرى ويستغله للتشهير به والتنفير منه ، والمتوسط بينهما يضيع بين هذا وذاك ، ولا يعرف أين يكون الموقف السديد ؟ والنتيجة النهائية هي أن ما نطلبه من التراث لغوياً ، لتكوين المهارات لدى الشباب والناشئين ، يتعذر إدراكه ويعود مردوده ضئيلاً جداً ، بل يغرس في النفوس الخوف من مطالعة الكتب التراثية ، ويهيئُها للوقوع في أحضان العامية والعجمة .

وإذا أرادتْ أن تصطنع ، في الكتابة أو الحديث ، فصاحة وبياناً اعترضت سبيلها جماعات الوصاية اللغوية ، بتحكم فيما يجوز ولا يجوز ، وتعسف في تصيُّد الخطأ والصواب ، وتعنت في تمييز الفصيح من العامي . فقد ألفتْ تلك الجماعات في الأسواق عدداً غفيراً ، من الأحكام الجائرة تحت عنوان : لغة الجرائد ، وعثرات الأقلام ، والغلطات اللغوية ، وقل ولا تقل ، وأغلاط الكتاب ، ومعجم الأغلاط اللغوية ... فكان في طريق المتأدبين والمتكلمين سدود ومنعطفات ومنحدرات ومرتفعات ، أكثرها مصطنع لقولٍ نحوي أو لغوي ، أو لمذهب أو لهجة قبلية ، أو لحكم محدود من ضوابط الشذوذ والقياس .

وعلى من أراد تجاوز هذه السدود أن يكون كمن يسير في أرض مزروعة بالألغام بين أسلاك شائكة . فهو حيثما توجه وأينما قصد يخشَ تفجير الألغام وتمزيق الأشواك ، فإذا هو يقف حائراً بلا حَراك ، ومن حوله مغريات العامية والأعجمية ، ومسوغات التعبير الاعتباطي ، في كتب أنيقة ونشرات منمقة وإذاعات وتلفزات ، تمهد السبيل للخلاص من تلك الألغام والأسلاك ، فلا يرى بدّاً من الإعراضِ عن الأداء اللغوي السليم ، والانغماسِ في الميدان الفسيح من التعبير التلقائي الخالي من القيود والسدود .

ذلك هو المُناخ اللغوي الموبوء ، الذي يتنفس فيه الإنسان العربي ، ويشحذ به مهارته في الأداء والاستيعاب والإنجاز . أفعجيب بعد هذا أن نرى المهارة اللغوية لديه

قاصرة هجينة ؟ إنما مَثله مَثل من يعيش في بيئة ، هواؤها فاسد من جميع الجهات ، مشحون بالغازات السامة والجراثيم الفتاكة ، يغذي به جسمه وروحه وعقله ، فمن أين يكون له الصحة والنماء ؟

داء لغوي عُضال :

لقد كانت محصلة هذا الواقع اللغوي أن انهارت دعوات الإصلاح ، وتداعت قوائمها ، وسيطرت النزعات الشعوبية والاستشراقية في بلاد العرب ، حتى أصبحتَ ترى المتكلم بالفصحى غريباً ترقبه العيون شزراً ، وتتلقاه الوجوه بالامتعاض . فهذا أستاذ يدرس البلاغة العربية بلغة فصيحة بين طلاب المدارس ، فإذا هم يفقدون القدرة على متابعته وفهم مراميه ، لأنهم يتلقون جميع العلوم والفنون بلهجات عامية ، فلا يجدون مفرّاً من الشكوى والتذمر ، حتى يصل بهم الأمر أن يرفعوا خطاباً بتوقيعاتهم إلى مدير المدرسة ، يتهمون فيه هذا المدرس باصطناع لغة لا تُفهم وأساليب لا تُدرك ، لأنها مسوقة بلغة العرب الفصحى .

وكانت مفاجأة للمدير هذه الشكوى . حقّاً أن جميع المدرسين لا يتقنون العربية ، ويتسمّحون في التعبير بلهجاتهم المحلية ، فيدركها الطلاب لكثرة ترددها عليهم ومزاولتهم إياها . أما هذا الأستاذ فقد خرج على إجماع جمهور المدرسين ، وعسير أن يُرَدّ إلى ذلك الإجماع ، وعسير أيضاً أن تطوى شكوى الطلاب . لقد حار المدير في أمره ، ولم يجد مفراً من تبليغ الأستاذ تلك الشكوى ، والرجاء أن يخفف من غلواء أدائه اللغوي ، ليستطيع أن يساير ركب الآخَرين . وإلا فلماذا تمتاز البلاغة عن غيرها بلغة خاصة ، وتبقى المقررات الأُخرى كالتاريخ والرياضيات والتفسير والأدب والنحو في أحضان لهجات محلية بسيطة ؟

وهذا زميل تركي عالم ، يُدرّس بعض العلوم الإسلامية في إحدى جامعات بلاده ، مُنح سنةَ تفرّغ ليَدرس بعض الموضوعات الدينية ، فاختار أن يؤم الجامعات العربية

يستقي منها الفصاحة والبيان ، كما كان يَقصِد قدماء علم العربية البادية لتلقي اللغة الصافية القويمة . وقد لقيتُه مصادفة بعد أن طوّف في تلك الأصقاع ، فإذا هو في إحباط وتعاسة وقنوط ، يأسف أن أضاع تلك السنة من حياته العلمية في سوق لا تعرف رواجاً للعربية ، ولا يجمع بين شتاتها إلا نَبذ للفصحى ، واعتماد ما تيسر من اللهجات والرَّطانات . وليس شأن الأوساط غير الجامعية بأفضل مما لقي في الجامعات .

فكانت خسارته أن فقَدَ كثيراً من معلوماته اللغوية ، ورجع إلى بلاده بلا خُفَّي حُنين . ولم يستطع أن يعوض من هذه الخسارة اللغوية كسباً علمياً ، لأنه كان قد تعلم العربية فصيحة سائغة ، وهو عاجز عن تلقي غيرها من أدوات التعبير المحلية . إنه كِبتار إنساني لا يتلقى مستوعباً إلا ما اختزنه في نفسه وملأ به صدره . فإذا خاطبتَه برموز تخالف رصيده تعطلت قدراته وعاد يائساً حسيراً .

بل إن أُستاذاً للعربية ، وزوجته المختصة في العربية أيضاً ، يشكو إليهما طفلهما الصغير أن أحد رفاقه في الروضة يتكلم بين زملائه بلغة « الغرباء » . وما هي هذه اللغة ؟ ولماذا وُصِمَتْ بالغُربة ؟ لقد تبين أن ذلك الرفيق يحدث زملاءه بقوله في الاستفهام : لماذا وكيف وأين ومتى ؟ أرأيتَ ، لقد أصبحت الألفاظ العربية المفردة غريبة في ديارنا ، بل في عقر أسرة ، هي من سدنة اللغة ورعاتها والأوصياء عليها . أفبعد هذا غُربة وبلاء ؟

على أن مثل هؤلاء الأوصياء كانوا وما زالوا يرصدون هذا البلاء ، ويتذمرون من طغيانه ويجدّون في محاصرته وتطويقه . فقد ثَبَتَ لديهم أن الأداء اللغوي سقطت مع الزمن همزته الأولى ، فصار داء من الداء عضالاً ، فراحوا يقيمون الندوات والمؤتمرات والمحافل والمحاضرات ، ويُصدرون الكتب والمقالات والنشرات والمواعظ ، يَصِفون بها استفحال الداء ، ويحاولون أن يضعوا سبيلاً للشفاء .

عشرات وعشرات من تلك المحافل ، تقام في الجامعات والمنتديات والمساجد

والمنظمات العربية ، تربو على الحصر ويضيق المجال بسرد أسمائها ومواقعها وما ألقي فيها . وحسبك أن تعلم أن في القصيم وحده ثلاثة محافل ، كانت في هذا العام الدراسي مخصصة لعلاج المهارات اللغوية . إنه شعور عربي إسلامي نبيل ، وهمّ علمي إنساني كريم ، وحماسة مسؤولة صالحة . ولكن ما هي النتائج التي انبثقت من تلك المحاولات ؟

يمكنك أن ترصد واقع اللغة العربية ، على الألسن والصفحات وأمواج الأثير والشاشات الصغيرة والكبيرة ، خلال العقود المنصرمة ، لترى الخط البياني الممثل لذلك الواقع . فهو في انحدار واضح القسمات يهدد بالانقراض إن لم نقل بالزوال . وناهيك بما يصدر عن الغَيُورين على هذه اللغة ، لتتحسس أصوات الندب والرثاء والشكوى ، لما تعانيه المهارات اللسانية في بلاد العرب .

فكل ما يلقي به هؤلاء ينذر بأن الداء يتفاقم ، وترتفع أمواجه مع الأيام . هذا في حين أن ما يصدر باللغات الأعجمية عن وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية يجب أن يكون خالصاً صافياً فصيحاً قُحّاً ، إن صح التعبير . فهي في مستوى لائق كريم ، والعربية في تدنٍ وتشتت وضياع .

وأكبر مثال لما ندعيه ، من تهافت العربية ، ما حدث في الجامعات والمعاهد لدينا . فقد كان الأساتذة والمحاضرون فيها ، منذ أربعين سنة أو أكثر ، ينقلون العلوم والمعارف والفنون ، بالشام ومصر مثلاً ، نقلاً عربياً فصيحاً ذا بيان ودقة وصفاء . وكل منهم يتحرى التعبير العربي ، ويجتهد في اختيار اللفظ والتركيب ، ليقدم العلم مع الفصاحة ، ويزود الطلاب بالمعارف والمهارة اللغوية .

وقد نتج عن ذلك مصادر غفيرة ، تترجم المصطلحات والمنجزات العلمية وسائر ما تحتاج إليه الجامعات ، من فنون وآداب وتجارب . كان هذا في العهد الذي دخلنا فيه الجامعة طلاباً ، فتلقينا كثيراً من العلوم والآداب ، من أساتذة بلغاء أبيناء . حتى إن

الأطباء والمهندسين ، وعلماء الاجتماع والفلسفة والحقوق والشريعة والفيزياء ، تدهشك قدراتهم اللغوية وإنتاجهم الطافح بالفصاحة والوضوح والعروبة الصافية .

أما الآن فيكفيك أن تحضر قاعات الدرس ، في تلك المؤسسات ، لتسمع لهجات مركبة من الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والعامية المحلية . فقد انحسرت تلك القمم الغيور على لغة القرآن ، وتدفقت على مجالس العلم والتعليم دفعات من خرّيجي البلاد الأوربية ، هجرت الفصحى وتطبعت بلغات الأعاجم ، حتى تعذر عليها أن تقيم عبارة أو تفصح بلغة الأجداد .

أضف إلى هذا أن هذه الدفعات تخللها كثير من القاصرين علماً وقدرة ، وتربع منابر الجامعات بوسائط ملتوية ، أضعفُها المحسوبية والتمسح بعواطف المسؤولين ، فما استطاع بتخصصه أن يرتفع إلى المستوى العلمي أو اللغوي المناسب . ولو أنك تصفحت ما يصنفه هؤلاء أو يملونه أو يقررونه لرأيت مصداق ما ادعيناه ، وحسبتَ أنه ليس ثمة ضابط أو رقيب أو مسؤول ، يتابع مثل هذه الواجبات . فإذا كان هذا حال اللغة العربية في جامعاتنا فليس عجيباً أن يكون حالها أكثر سوءاً ، في المستويات التعليمية والإدارية والإعلامية .

ولعلك تكون معي ، بعد هذا ، في أن محافل الإصلاح اللغوي ، ومواعظ الأوصياء على لغة القرآن باءت بنتائج هزيلة ، ولم تفلح في تحقيق أهدافها ومقاصدها النبيلة ، وما زالت تتشكى وترفع أصواتها بالويل والثبور . ولعل السر في ذلك أن جهود هؤلاء كانت تنصب في إطار إعلامي ، غايته استعراض العضلات وتزويد الصحف والإذاعات والتلفزة بالمواد التنظيرية للدعاية .

بل إن أكثر ما يهتم به هؤلاء المصلحون هو السرد السلبي للمثبطات والمعرقلات ، ونشر صور التشويه والحصار للمهارات اللغوية في بلاد العرب ، وعرض القيم المتميزة لخصائص العربية ومحاسنها . ثم يكون الختام بتوصيات مقتبسة من تجارب الغرب في لغاته ، تكون فضفاضة متكاثرة نظرية ، لا تصلح في ميدان التطبيق العملي المجدي .

إنها وصَفات براقة متلاحقة يُنسي آخرُها أولَها ، فتخيِّب الآمال ولا تُلزم أحداً بمتابعتها وتنفيذ محتواها . إنها نتاج حماسة وانفعال وعواطف ، تُشغل بالأعراض الجانبية عن مكمن الداء وصلاحية الدواء ، ويَنقص كثيراً من أصحابها الخبرةُ العملية ، والقدرة على تعاطي ما يصفه من علاج ، ليكون في لغته وتعبيره كما يصبو في توصياته وأهداف صيحاته .

أليس عجيباً أن يستفحل الداء ، مع كثرة الوصفات والتوصيات والمحافل والدعوات ؟ لقد كان منتظراً أن تستفيد المهارات اللغوية ، من تلك الجهود الغفيرة المتلاحقة . ولكننا نرى مسيرة الدواء عكسية ، تندفع في درجات من الضعف والضياع . فهل ترى معي أن سبب ذلك كون الداء عربيّاً خالصاً ، لا يؤرق مضاجع الأعاجم ، بل يغمرها بالطمأنينة والرضا ؟

نعم قد يكون هذا حقّاً هو سبب ما رأيناه . فلقد ألفنا أن نستورد لأمراضنا المختلفة الأدوية المقنّنة المعبّأة ، والأجهزة المصمّمة ، والنظريات المنفّذة لاستخدامها ، والخبراء المشرفين على استعمالها ، فكان لتلك الأمراض شفاءً ناجع في غالب الأحيان ، وما حاولنا أن نولِّد شيئاً ذا بال في تلك السبيل .

ولذلك وقفنا أمام واقع اللغة العربية المريض موقفنا من جميع الأمراض ، ننتظر أن تَردَ علينا وسائل العلاج والشفاء جاهزة معقّمة ، ثم اقتبسنا من الغرب بعض ما فرضه علينا من نظريات العلاج اللغوي ، وتجرعناه في كثير من بلاد العرب فكان داءً فوق الداء ، وبلاء يزيد البلاء ، لأنه صُنع لواقع غريب ، ودخله كثير من الغش ومقاصد الفساد .

فإذا أردنا حقّاً أن نصل إلى شاطئ السلامة والفصاحة ، في المهارات اللغوية ، كان علينا أن نُعرض عن وصَفات العدو ، ونصرف همّنا إلى العناصر الأساسية في البلاء ، ليكون تشخيص دقيق ووصف مخلص وفيّ ، ثم علاج عربي خالص يضع حدّاً للحصار

العامي والتهديد الأعجمي ، ويفتح متنفس السلامة اللغوية والفصاحة والبيان . إنه داء عربي ، ولا بد له من دواء عربي ، وإشراف عربي أيضاً . فهل نتوجه إلى هذا بوضوح وعلم وعمل ؟

صحوة مباركة

نافذة للنَّجاة :

حسبنا ما رأينا من الجانب السَّلبي ، في واقع اللغة العربية ومهاراتها . فلقد ملأتْ نفوسَنا تلك الشكاوى ، فكادت تقطع علينا سبيل الأمل ومقاصد النجاح . إنها فتنة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ يَميز بها الخبيث من الطَّيب ، ويمتحن القلوب والضمائر ، ليَظهر العملُ الوفي الناجع إزاء الجهد الاعتباطي الهزيل .

ولو أنك تفحصت جوانب المشكلة اللغوية في بلاد العرب لرأيت أن أمتنا تجمع ألواناً مشرقة أيضاً . فلقد انصرف المصلحون إلى الجانب السلبي يثيرون به العواطف ، وشُغلوا عن الجانب الصحي ، وهو صورة من النماء والصلاح والسير نحو الأفضل ، كان أهلاً للعناية والاهتمام ليكون سبيلاً للخير والشفاء .

لست أدعي هذا عملاً بالقول المأثور :[1] « تَفاءلُوا بالخَيرِ تَجِدوه » ، لست أدعيه لهذا القول فحسب ، وإنما أنطلق أيضاً من نظر واسع ومقالات وندوات وأحاديث ... منها مانشر في المجلة العربية سنة ١٣٩٨ تحت عنوان « اللغة العربية الفصحى ، أسباب انحدارها وعوامل النهوض بها » ، فكان لبعض الباحثين مشاركة وتوجُّهات متتابعة ،

(١) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النَّبي ـ عليه السّلام ـ ما جمع بيتَ شِعر قط ، إلاّ بيتاً واحداً :
تَفاءلْ بِما تَهوَى، يَكُنْ، فلَقَلَّما ... يُقالُ لِشيءٍ: كانَ، إلاّ تَحقَّقْ
قالت : ولم يقل « تحقّقا » لئلاّ يُعرِب فيصيرَ شِعراً . تفسير ابن كثير ٣ : ٥٥٦ وفتح القدير ٤ : ٥٣٥ .

وخاتمة رصدت تلك الجهود ، وتوجّتُها بالوصفة الطبية العملية ، مع بيان الألوان المشرقة في واقع العربية .

وقد صدر عني أيضاً ما نُشر في مجلات وصحف عربية متعددة ، همه الأساس رفع الحصار عن المهارات اللغوية ، وإشاعة اليسر في استخدام لغة العرب فصيحة دقيقة ، بعيدة عن التنطع والتقعر والعصبيات اللهجية ومذاهب النحاة . وقد تعرضت في ذلك لمشكلة الفصاحة في المعجمية العربية ، وفتح الأبواب لتوظيف الحديث النَّبوي الشريف في ترسيخ البيان ، واستبعاد التعسف في النقد اللغوي أو النحوي للأدب والأدباء ، وتجنب الوصاية على الشعراء فيما أجازه تاريخ اللغة والشعر من موسيقى وأداء وتعبير ، واهتمام عملي بالتراث يزيل عنه طابع الإرهاب ويحبب الناس به ويقربهم إليه .

وكان مما ألححت عليه أن ينفذ تنسيقٌ جديد لمناهج النحو في المراحل الدراسية ، كي يمتازَ النحو العلمي النظري القائم على اللهجات المختلفة والمذاهب الشخصية والجماعية والاحتجاج والجدل والتعليل وكثرة التوجيهات والآراء ، من النحو العملي التطبيقي الذي يجمع قواعد التعبير الأساسية دون تشعب وخلاف ، فيكونَ الأول لطلاب قسم اللغة العربية والدراسات العليا منها ، فيتخرج به المدرسون لهذه اللغة ، والعلماء المتخصصون في تراث النحاة وأصول تفكيرهم ومناهج بحثهم ومنافذ القول لديهم دراسة وتقويماً وبناء جديداً ، ويكونَ الثاني موزعاً على المستويات المدرسية والكليات والمعاهد التي لا تختص باللغة العربية ، فتنمو الملكة اللسانية في الأداء كتابة وقراءة ، والفهمِ لما يُسمع أو يُقرأ .

ومن خلال ذلك كله ، تبدت ألوان إيجابية في تطور المهارة اللغوية المعاصرة ، وظهرت بوادر صحية في حياة اللغة العربية ، وتوسمتُ للنحو بكامل عناصره مستقبلاً مشرقاً ، تتمناه العقول والألسنة وسائر ميادين القول والكتابة . فعلى الرغم من الغزو الثقافي ، وانتشار اللهجات العامية والآثار الأعجمية ، في أوساط الأسرة والمجتمع والإعلام

والتعليم ، والحصار الشديد لمنافذ الفصحى بألسنة العالة الأجنبية ، من خبراء وعمّال وموظَّفين ومربّيات وعلماء ومخطِّطين ، على الرغم من هذا كله تجد معي بوارق ، من الشيوعةِ للفصحى والانحسارِ لتسلط العامية والعجمة .

فقد استطاعت عوامل ثقافية وعلمية أن تقوم بدور الصحوة اللغوية ، بعيداً عن جهود النَّدوات والنصائح والتوجيهات القاصدة . ذلك أن انتشار الثقافة والتعليم ، واختلاط الشعوب العربية بعضها ببعض عن طريق تبادل الخبرات والعلاقات العامة ، كان لها أثر واضح في زعزعة الجُزُر العامية المتمكنة .

فقد كنتَ منذ خمسين سنة ترى الشامي والمغربي يتعذر عليهما التفاهم في حديث واحد ، إلا إذا كانا مثقفين يتقنان الفصحى . وكذلك حال عربيين من العراق والسودان مثلاً ، أو من الخليج وتونس وغيرهما . أما الآن فإن أمثال هؤلاء أصبح لديهم شبه لغة دارجة يتواصلون بها ، بعيدة عن العامية وقريبة من الفصحى . فقد صحَت تلك الألسن من غيبوبتها ، وتنفستْ بعض الصعداء ، وتحركتْ بعد رقاد مديد مستحكم . وهذا يعني أن خريطة اللهجات العقيمة زُعزعت ، وزال الخطر الخبيث ، فأصبحنا في مرحلة صحية تستجيب للعلاج وتسمح بالشفاء ، إن شاء الله .

ألستَ ترى أن عامية جَدّي وجَدّك ليست كعاميتي وعاميتك ؟ أليس فيما نتداوله الآن ما يبشر بالقرب من السلامة والبعد عن الاضمحلال والزوال ؟ فإن كنتَ في شك من هذا فاستمع ما يتداوله سكان المملكة العربية السعودية مثلاً ، وتذكر ما كانوا عليه منذ ستين أو سبعين سنة . وافعل مثل ذلك في سائر البلاد العربية ، تجد إشراق التفاؤل يلتمع في نفسك . لقد دبت الحياة فيما أريد له الممات ، وآن له أن يستعيد ألوان النشاط والحيوية والنماء .

إنها إرادة الله ـ عز وجل ـ تتحقق في كل حين ، ويكون لها النفاذ والاستمرار الأبدي . فقد تكفل ـ سبحانه ـ أن يحفظ القرآن الكريم ودينه العظيم من كل تحريف

أو ضياع : ﴿ إنّا نَحنُ نَزّلْنا الذّكرَ ، وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ .[١] وهذا الحفظ الرباني للقرآن والإسلام يقتضي الحيوية والصفاء والخلود لعروبة اللسان ، إذ هي السياج اللغوي للصيانة والفهم والأداء والتلقين . فلا غرو أن تتجاوز العربية كل عوامل الهدم والإضعاف والإهمال ، لتستمر لديها القدرة على التبليغ والعطاء ، وهذا ما نراه يتجدد في كل زمان ومكان ، من بقاع العروبة والإسلام .

ومن الشائع حقاً أن ترى لدى طلاب الجامعة ، في الدراسات العربية والشرعية ، نزوعاً إلى تمثل الفصحى والحرص عليها ، مما يبشر بشيء كريم من السيرورة في سبيل المهارات اللغوية . وقد حضرت بعض ندوات لهؤلاء الطلاب ، فسمعت ما تداولوه بينهم من حوار ، فكان فيه من الفصحى والسلامة اللغوية ما يفوق ندوات كثير من الأوصياء على العربية وأساتذة اللغة والأدب .

أقول هذا بصراحة ، لأن بعض هؤلاء المصلحين كان يتلعثم في كلامه ، ويجنح إلى العامية المقيت ، أو يتنطع بالعبارات الأعجمية الهزيلة ، أو يُرتج عليه فيلحن ويخلط في التعبير ، ثم يؤائي إيئاء ليضع في كل دقيقة أمشاجاً من الأصوات . فطلابنا ـ والحمد لله ـ يحملون معنا راية لغة القرآن ، ويبشرون بسيادتها وقدرتها على الحياة والنماء ، ويُهيبون بكثير من العلماء والمدرسين أن يكونوا أكثر منهم اهتماماً وحرصاً وأداء ، ليعم التفاؤل وتصبح الفائدة شائعة ميسورة لدى الجميع .

براءة العربية :

كان من عوامل التّشاؤم والسوداوية ، في تاريخ العربية المعاصر ، ما يروجه أعداء لغة القرآن وبعض الأوصياء عليها ، من أنها عسيرة يتعذر إتقانها ، ولا يُحسِنها حتى النُّحاة والأدباء واللغويون . إنها ـ كما زعموا ـ بحر محيط له أول ولا آخر له ، فلا بد أن يغرق من أراد خوضَه وتَعرُّفَ سواحله وأعماقه . وقد استطاع هؤلاء أن يغرسوا في

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

نفوس الناشئة الرهبة من متابعة شؤون العربية والاهتمام بها ، لأن إدراك المُحال ضرب من الخيال ، وخير لهم الانصراف إلى وسائل للتعبير من مصادر الأعجمية والعامية ، ليأمنوا خطر الضياع والغرق .

والحق أن هذه التهمة شبهة بعيدة جداً عن طبيعة لغة العرب ، التي يُسرُها أوضح من أن يحتاج إلى بيان . ولست أزعم هذا تبشيراً بلغة أجدادي ، ولا تهويناً على الناس ، مع إيماني بوجوب الانقياد لقوله عليه السّلام :[١] « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا ، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا » . ذلك لأن أمر اليُسر في لغتنا قد أقرَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعبارة صريحة حيث قال :[٢] ﴿ فإنَّما يَسَّرْناهُ بِلسانِكَ ، لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾ .

فالقرآن الكريم يسَّره الله ـ عز وجل ـ بلغة العرب ، لأنها أقدر على الأداء وأطوع للاستيعاب والبيان ، لدى الرسول الكريم ـ عليه السلام ـ والعرب في كل زمان ومكان ، ومَن طلب العربية أيضاً . وإن تخصيص التيسير بالذكر ، لتكون العربية وسيلة إليه ، لأوضح دليل على ما زعمناه . ولهذا فسَّر العلماء مضمون الآية بما يلي :[٣] « يسَّرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك » ، ولم يجعلوا ذلك خاصّاً بالنَّبي ، ﷺ .

بل إنك لترى هذا المعنى يتردد في القرآن الكريم مرات أُخَر ، بعد عرض لصور الانتقام الرَّباني وعذابه ووعيده في الأمم السابقة واللاحقة ، إذ يقول سبحانه :[٤] ﴿ **ولَقَدْ يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكْرِ . فهَل مِن مُدَّكِرٍ** ﴾ ؟ **فهذه الآيات الكريمة تقرع الأسماع** ، وتحقق في القلوب أن ما جاء في الآية السالفة الذكر أمر ثابت ، يتردد بلا حاجة إلى توضيح أو بيان . ثم ترى أيضاً تحقيقاً آخر لسلامة العربية ويسر بيانها في قوله ، تبارك وتعالى :[٥] ﴿ قُرآناً عَرَبِيّاً غَيرَ ذِي عِوَجٍ ، لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ ﴾ .

(١) الأحاديث ٦٩ و ٥٧٧٤ في البخاري و ١٧٣٤ في مسلم .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم . وانظر الآية ٥٩ من سورة الدخان .

(٣) تفسير البيضاوي ص ٢١٣ . وانظر تفسير البغوي ٣ : ٢١٠ والبحر المحيط ٦ : ٢٢١ .

(٤) الآيات ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ من سورة القمر .

(٥) الآية ٢٨ من سورة الزُّمر .

وأقرب دليل على ما ذهبنا إليه أن الأطفال ، في سنّ الرابعة أو الخامسة ، إذا سمعوا عبارات فصيحة رددوها بدقة وسلامة ، ولو كانت كثيرة . ولهذا تراهم ، عندما يسمعون قصة أو يشهدون مسرحية بالفصحى ، يرددونها على ألسنتهم وينقلها بعضهم إلى بعض ، وتصبح جزءاً من تعبيرهم في كثير من المواقف ، مع أنهم قد لا يفهمون فحواها ووظيفتها في التعبير .

وغير بعيد عنا ما ألِفناه من حفظ الأطفال قبل سن العاشرة ، في التاريخ الماضي والأيام الحاضرة ، لأجزاء من القرآن الكريم أو لمجموعه دون استثناء ، ثم استخدامه في مجالات مختلفة من الحياة . فلو كان الأمر كما زعم المرجفون لتعذر ذلك أو استحال . وكلنا يعلم ما كان عليه سادة العرب قبيل الإسلام ، إذ يسترضعون أطفالهم سَنة أو أكثر في بادية الفصاحة ، ليتزودوا باللغة العربية سائغة سليمة من كل شائبة .

ولو أنك هيأت للطفل هذا مُناخاً عربياً فصيحاً سَنة واحدة أو أقل لرأيته لا يتكلم إلاّ بالفصحى ، في مخرج الحروف والصيغ الصرفية والتركيب النحوي ، بلاغة وبياناً وأداء . فهو يتقن اللغة العربية في سنة واحدة ، في حين أنك لو حاولت أن تفرض عليه تعلم خبرة معقدة ، كإصلاح التلفاز أو السيارة ، لرأيت قدراته عاجزة عن الاستيعاب والممارسة والأداء . وكلنا يرى العشرات والمئات من بسطاء الناس يمارس هذه المهن ويعيش من ريعها في حياة راغدة . ومعنى هذا أن إتقان الفصحى أيسر على الطفل ، بلهَ البالغَ وغيره ، من الأعمال الآلية الأُخرى . فهل بعد هذا من حاجة إلى دليل ؟

لعل بعض أولئك المرجفين يرى انسداد السبل أمامه ، فينعطف إلى جهة أُخرى ، ليقول : إن العسر المذكور هو في النحو لا في اللغة نفسها . وقد سمعنا هذا غير مرة ، من أعداء العربية ، ومحبِّيها الذائدين عنها والراغبين في خدمتها . فليس قولاً ندعيه ، ولا اختلاقاً نضعه في مجال الحوار . فهم يريدون أن ينقلوا الشُّبهة إلى قوانين اللغة وضوابطها ، فيصفونها بالتعقيد والتناقض أو العقم أحياناً . كل ذلك ليكون في نفس

العربي ودارس العربية رهبة وتهيب ، يحملانه على الإعراض عنها والانصراف إلى غيرها من وسائل التعبير .

والشُّبهة هذه أضعف من تلك ، لأنها لا تحتمل الجِدَّ في الحوار والإمعانَ في الاستدلال . فكثيراً ما لقيتُ طلاباً جامعيين ، يشكون من عسر النحو وعجزهم عن استيعابه ، ويرجون أن يروا سبيلاً للخلاص والإتقان . فكنت أنصحُهم بوصفة علاجية يسيرة جداً ، هي أن يعودوا إلى كتب النحو في المدارس المتوسطة ، يدرسونها مسلسلة بإمعان واستخدام عملي لشهر أو شهرين ، ثم يلقوني لرصد النتائج الصحية لديهم . فكانوا بعد استخدام تلك الوصفة يتابعون دراسة النحو في قسم اللغة العربية ، بنجاح وتفوق وارتياح .

وهذه طفلة دون العاشرة ، عاشت في بلد أعجمي وأسرة تتبادل اللغة الأجنبية ، تعود إلى مدرسة ابتدائية في إحدى مدن الشام ، فإذا هي بين زميلاتها لا تعرف شيئاً من العربية وقواعدها ، وتكون بينهن غريبة اليد والوجه واللسان . غير أنها ، بعد سنة واحدة من الدراسة الجادة المحبة ، ترقى في استخدام اللغة وإتقان ضوابطها إلى درجة ظاهرة جداً ، تتقدم الجميع وتفوقهن قدرة ومعرفة وأداء .

ولماذا نتجاهل وقائع التاريخ ، وفيها الخبر اليقين ؟ فالمعروف أن سيبويه شبَّ في بيئة فارسية ، وأخذ العجمة عن أسرته وبيئته ، ثم رحل إلى البصرة شاباً يدرس العلوم الإسلامية . ولما شعر بعجزه عن متابعتها انصرف إلى دراسة النحو ، فأصبح بعد سنوات إمام علم العربية وسيده حتى يومنا هذا ، وصنف كتابه المشهور الذي يعجز عن مجاراته كبار العلماء والمؤلفين . كان ذلك في سنوات معدودة ، لأنه توفي في كهولته ، بعد أن ترك الأثر الكبير والفهم الدقيق والاستخدام الناجح ، لقواعد اللغة وأصولها وضوابطها وما شذ منها .

وليس هو بالفريد في تاريخ العلماء . فأبو حيان النحوي ذكر في ترجمته[١] أنه طلب علم الصرف في ستّة أشهر على أحد شيوخه ، فأتقنه وصار مرجعاً فيه وباحثاً ومؤلّفاً ، يتعقب العلماء ويستدرك عليهم الشيء الكثير . والإمام الطبري صاحب التفسير والتاريخ احتاج[٢] ـ كما يقول ـ إلى معرفة علمَي العروض والقوافي ، فعكف عليهما ليلة واحدة ، خرج منها بالإدراك والإتقان والعرفان . إنها الرغبة الصادقة والمحبة الخالصة والجِدّ والعزم ، يكون بها تيسير كل أمر والوصول إلى كل غاية . فكيف إذا كان المقصَد دراسة علم للُغة ، يتداولها الملايين تلو الملايين ، في أصقاع مختلفة وقرون متوالية ؟

ثم علامَ أستحضرُ الأدلة من التاريخ ، وبين يديّ تجربة أصدق وأكثر دلالة على ما نحن فيه ؟ تلك هي تجربتي مع علم العربية ، ولست أبالغ أو آتي بحديث مرجَّم . فقد ودَّعتُ المدرسة الابتدائية ، لأعمل في ميادين المهن الحرّة ، وأنا في الثانية عشرة من العمر . لبثتُ كذلك بضع سنوات تبلغ السبع تقريباً ، حتى أُنسِيتُ كل شيء من النحو أو الصرف أو البلاغة أو العروض . ثم مَنَّ الله عليَّ أن التحقتُ بمدرسة ليلية أطلب العلم فيها ، وأنا أتابع العمل الحرّ نهاراً أو ليلاً كل يوم .

وإني لأذكر حتى الآن أن أول ساعة لدراسة النحو دخل علينا فيها شيخ ذو عِمّة بيضاء ، يحدثنا عن أهمية هذا العلم ووجوب إتقانه . كان ذلك منذ أربعين سنة ، وما زلت أتمثل موقفه وحديثه وتلقِّينا لكلماته الهادئة . لقد قال فيما قال : نحن ندرس النحو ليصحَّ كلامنا ، فنقولَ : جاء الطالبان ، ولا نقولَ : جاء الطالبين . وعجبت ـ والله ـ حينذاك لأنني لم أجد فارقاً بين ما وصفه بالصواب وما نعته بالخطأ ، وتساءلت : ما الفرق بين هذا وذاك ؟ ولماذا يكون أحدهما صائباً والثاني خطأ ؟ كذلك بدأتُ الدراسة الليلية ، على جهل تام بالنحو ونتائجه في الكلام .

(١) المبدع في التصريف ص ٤٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ٥٦ .

كنا مجموعة من العمال والموظفين البسطاء ، نقضي ساعات مديدة مُنهكة في أعمالنا اليومية ، ثم نأوي إلى قاعة الدراسة ثلاث ساعات كل يوم ، على ما نحن فيه من الجَهد والهموم الشخصية والمهنية والعائلية . وقد أمضينا في هذه الحال ستّة أشهر ، درسنا فيها مقررات السنوات الدراسية المتوسطة ، أي : ما كان للسنوات الأربع التالية للمرحلة الابتدائية .

وكان للنحو في ذلك ساعتان في الأسبوع ، وللبلاغة ساعة واحدة ، وللأدب ساعتان فيما أظن . وفي غضون هذه الساعات خرجتُ من النحو بمعرفة دقيقة ، جعلتْني أحب هذه اللغة وأنصرف إلى متابعتها وخدمتها مدى الحياة . ذلك لأنني نجحت في امتحان النحو والأدب والبلاغة لشهادة الكفاءة بتفوق ـ والحمد لله ـ فرأيت أمامي السبيل معبدة شائقة ، تُغري بالجدّ والاهتمام .

فما كان للنحو من تلك الأشهر الستة لا يتجاوز خمسين ساعة دراسية ، قُرر علينا فيها ما يدرسه طلاب المرحلة المتوسطة في أربع سنوات ـ وهو جمهور ما تقتضيه المهارة اللغوية ـ فاستطعنا بعون الله ـ تعالى ـ استيعابه وممارسته في الكتابة والقراءة والكلام والفهم للنصوص والنقد والتحليل الأدبي ، مع أننا دخلنا أيام الدراسة الأولى وليس لدينا من ذلك شيء يذكر .

لم أكن الوحيد في هذا ، كما ذكرتُ ، بل كان معي زملاء كرام تجاوزوا النجاح بكفاية ، وتابعوا الدراسة الثانوية ليلاً أيضاً ، ثم التحقوا بالجامعات أحراراً منتسبين أو منتظمين ، فكان منهم بعد سنوات من اختصَّ في الأدب أو النحو أو الشريعة أو القانون أو الطب أو الهندسة ، ومثّلوا الجدّ في العلم والعمل وخدمة الأمة واللغة . وأنت معي في أن نجاح هؤلاء ، في إتقان النحو بساعات معدودة ، سببه الرغبة الصادقة والمحبة الخالصة والجد والحزم . ولذلك كانت عليهم المُهمّة يسيرة ، والنتيجة طيبة ، بعون الله ورحمته . فهل تجد بعد هذا مجالاً لشُبهة العسر ، في دراسة النحو العربي ؟

وأظهر من هذا دلالة ما لمسته ، في تعليم العربية غيرَ أصحابها . فقد مارست ذلك أكثر من مرة ، منها ما تسنى لي منذ بضعة عشر عاماً ، في « بكين » عاصمة الصين الشعبية ، إذ شاركتُ هنالك في دورة لتدريس المختصين بالعربية ، من مترجمين ومذيعين وخبراء . لقد كان من نصيبي أن أحاضر فيهم بما لم يطَّلعوا عليه ، كأساليب التعجب والاستفهام ، والنداء والمدح والذم ، والإغراء والتحذير ، مع التحليل النحوي في الإعراب والصرف ، على غرار ما في كتاب « المورد النحوي » . وقد استطاعوا في بضعة أسابيع أن يتقنوا ذلك بنجاح وتقدير .

ومما أذكره عن تلك التجربة أننا ، عندما اختبرناهم لوضع الخُطّة اللازمة للدورة ، لاحظنا أنهم ينفرون من الشعر ومن قراءته لأنه ، كما قالوا ، لا يقرأ ولا يفهم . كذا علَّمهم المدرسون الصينيون والعرب الذين جاؤوهم من قبل . وقد كُلِّفت أن أحاضر فيهم ، بالنصوص الشعرية وعلَمَيِ العروض والقوافي أيضاً . وبعد مرور تلك الأسابيع المذكورة ، كان استيعابهم للشعر بأجود لفظ وفهم وأداء ، مع معرفة تامة بالتقطيع العروضي ، وتحديد البحور وأنماط القوافي المشهورة . وقد تحقق ذلك باختبار عملي ، في أبيات من النشيد السوري ، مختلفةٍ في القوافي وظاهر الإيقاع .

فلعلي أستطيع ، بعد أن برّأت ذمّة العربية مما يتهمها به بعض المعاصرين ، عرضَ خطوات إيجابية تعالج حالة الضعف في المهارات اللغوية المستعصية ، ويكون فيها الشفاء المرجو ، إن شاء الله . فقد رأينا عقم المحاولات المخلِصة في التَّصدي لهذا المرض المزمن الخطير ، وسمعنا صرخات النادبين واليائسين من الشفاء ، ثم لمسنا ما في ذلك من تضخيم للمصاب ويسر لإدراك مرحلة النجاح .

وإنني ، بهذه المناسبة ، لأخاطب إخوتي وزملائي وأبنائي بروح المودة والإخلاص ، وباسم العقيدة الإسلامية الغالية ، والمؤسسات العلمية التي أنشئت للإسلام وشريعته ولغته وعقيدته . أخاطبهم بهذا كله ليكون لكلامي أثر طيب وقبول حسن

وصدى إيجابي حميد ، ثم أعرض عليهم الوسائل الناجعة التي أراها حلاً للمعضلة المتصورة ، وهي طغيان العامية والأعجمية على المهارات اللغوية المعاصرة في دنيا العرب . ولسوف ترى هذا الحلّ في الصفحات التالية ، إن شاء الله تعالى .

٢

عوامل التنمية
لمهارات العربية الفصحى

في مثل هذا الموقف ، تجد المصلحين والأوصياء على عروبة اللسان ، يكثرون الشكوى والتذمر ، ويعددون صور الضعف والاضمحلال لما تعانيه العربية ، في موطنها وفي بقاع العالم . إنهم يندبون حظها ، ويَرْثُون لما يتمثل أمامهم من واقع ، يصفونه بما لا يُحتمل من سمات التخلف والانكسار ، أمام الزحف العالمي للغات الدول العظمى ، دول العدوان والطغيان والاستعمار . وما أكثر ما تجدهم يتتبع بعضهم بعضاً ، بما يزعمون من نحو : قلْ ولا تقلْ !

ثم ترى هؤلاء الإخوة الغيورين ، يتطاولون بما للعربية ، من خصائص رفيعة وإمكانات عظيمة تهيئها للسيادة بين اللغات ، ويختمون جلساتهم بتوصيات متكاثرة ، معظمها الأوامر والزواجر والفروض والأماني ، يتبرم بها المسؤولون ، ويعجز عن حملها الثَّقَلانِ . وعندي أن تلك الشكاوى المريرة ، وهذه المفاخر الرفيعة ، والتوصيات النظرية الغزيرة ، والتعقبات لكثير مما يسمى عثرات ، إنما هي نماذج من الرثاء الخفي .

فكأن إخوتي المذكورين قد يئسوا من الإصلاح ، فراحوا يتغنون بنكبات وزعازع وجراحات وأمراض ، ويعددون مآثر المُشرِف على الفناء ، في بكاء وتلهف وحسرات ، ويتمنون ما هو محال وخيال ، ويرمِّمون بعض مظاهر الداء ، مردِّدين قول حافظ إبراهيم :

فيا وَيحَكُم، أبلَى وتَبلَى مَحاسِنِي وفِيكُم، وإن عَزَّ الدَّواءُ، أُساتِي

إن ماذكرته صورة من المراثي القديمة المألوفة ، أو نموذج من وقوف الشعراء على الأطلال ، لندب الراحلين ، والتَّغني بماض زاهر مفعم بالنعيم والمسرّات . وقد تعدد هذا ، في مؤتمرات وندوات ومحافل ، توزعتْها البلاد العربية والإسلامية ، خلال النصف الثاني من هذا القرن ، حتى أصبح مآتم ومآسي مَوسمية ، تزيد أصحاب العربية ومحبيها ألماً وتشاؤماً ، وأعداءها إمعاناً في الكيد والهدم والعدوان ، وإنشاداً لأهازيج النصر ، وابتهاجاً بنشوة الظفر .

وأنا لست مع هؤلاء ولا أولئك ، فيما يتصورون ويتبادلون . لقد استنفدوا جميعاً ما يستحق البكاء والشماتة ، وآن لي أن أردد قول عنترة :

هَل غادَرَ الشُّعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ؟ أم هَل عَرَفتَ الدّارَ، بَعدَ تَوَهُّمِ؟

فلقد انتهت مواسم الآلام والمفاخر والوصايا والمكايد ، وآن لنا أن نعرف الدار بما فيها ، من الخير والبركة والتفتح والازدهار . ولو أنك تتبعت واقع العربية ، منذ خمسين سنة ، لرأيت أنه يسير في خطا غنية ، تبشر بصحوة نامية ، وتطلّع إلى الحيوية والنشاط . فقد استطاعت لغة القرآن ، في هذه العقود الأخيرة ، أن تهتز من غفوتها ، لتدفع بمنكبيها كثيراً من اللهجات المحلية ، والسلطان الأوربي المقيت .

ولهذا ترى أبناء الشعب العربي قد بعدت ألسنتهم ، عن الرَّطانات العامية المغرقة ، وأصبحوا يتداولون شبه لغة واحدة ، قريبة من منازل الفصاحة ، فيفهم بعضهم كلام بعض ، بعد أن كانت الفوارق اللهجية عميقة قاهرة . وقد حصل هذا بما منح الله ـ تعالى ـ لغتنا الحبيبَ من قوة ذاتية ، تحفظ لها البقاء ، وتتحدى الفناء وتدحر المكايد ، بعيداً عن جهود المؤسسات التعليمية ، وتوصيات المصلحين المشفقين .

فمن يقارن الخَطَّين البيانيين لمسيرة العربية في تلك المؤسسات ، وعلى ألسن

الناس ، يجد التناقض الظاهر للعِيان ، إذ يكون الأول متدنياً منحدراً نحو اللهجات المحلية ، والثاني صاعداً إلى حياض الصحة والفصاحة . ولو تُرك الحبل على الغارب ، لمسيرة هذين الخطَّين ، لأصبحنا بعد عقود في ازدواج معكوس ، لما نراه من عامية مغرقة في قاعات المدارس والمعاهد والجامعات ، وتطلع إلى السلامة في أحاديث الناس . وفي هذا خطر كبير ، وعجز عن مواكبة الحاجات الملحة للأمة ، وتضعضع أمام الزحف المنتظر ، لتحديات القرن الحادي والعشرين .

ولذا كان علينا ، في مثل هذا الموقف الكريم ، أن نتطلع إلى المستقبل بأنظار متفتحة ، لنضع خطوات عملية ناجحة ، ترأب الصدع المذكور ، وتستقبل التيارات بموقف قيادي ، تردّ حُمّياتها الغازية بإيجابية واقتدار ، وتستوعب تدفقها ، وتشبع الحاجات الحضارية والمعيشية المرتقبة ، وتقدم الخدمات الحيوية لما يجدّ من الوسائل والأعمال والتطلعات . وبذلك يكون للعرب والمسلمين عزة السيادة ، ومركز القيادة في الركب الحضاري .

وقد تبدى لي ، بعد معالجة مستمرة لهذه القضية في بضعة عقود ، وعدة مجالات من الكتابة والمحاضرة والبحث والمدارسة والحوار ، أن الواقع اللغوي للعربية لا يستقيم بالترميم والاستعطاف والتوصيات والتعقبات ، وإنما هو بحاجة إلى مصل جديد ، ينفحه الانطلاق نحو الصحة الكاملة ، والوعي المتفتح للوجود ، ليستطيع استعادة قدراته ، وتحقيق غاياته في ميادين الحياة ، ولا بد أن يكون هذا المصل نابعاً من عقيدة وعبادة وخلق ، حتى يتسنى له الفاعلية والاستمرار والنتاج الكريم .

عوامل التنمية للمهارات اللغوية

المعروف أن المهارات اللغوية تنحصر في مستويين : أحدهما يعم الأمة كلها ، والآخر يخص رجال الأدب والعلم والتعليم والإعلام . أما الأول فيكون في المجالات التالية : التعبير الكلامي السليم ، والقراءة المتقنة ، والفهم الدقيق للكلام ، والكتابة الصحيحة . وأما الثاني فينحصر في الإنتاج الأدبي الرفيع ، والتعليم السديد ، والبحث العلمي الدقيق . ورعاية هذه المهارات من المستويين المذكورين ، لتوجيهها في ممارسات أصحاب العربية ومحبيها ، تتوضع في خطوات أربع ، نعرضها فيما يلي :

١ ـ السُّنّة النبوية :

هذه النفحة المباركة هي العامل الأول ، للسير في سبيل الصلاح اللغوي ، لأنها تصدر عن إيمان ومحبة ووفاء ، فلو تتبعنا حياة النبي ﷺ ، في جميع مواقف خِطابه ، لرأينا أنه لم يُروَ عنه إلاّ فصيح الكلام ، سواء كان في مجلس أو طريق أو مسجد أو سوق أو بيت أو حرب أو خصام . فاللغة العربية الفصيحة ، فيما أرى ، هي سنّة شريفة تقتضي من المسلمين اتباعها ، تأسياً بالنبي الكريم ﷺ ، وتعبيراً عن المحبة والوفاء .

وهذه مسألة تحتاج إلى تفصيل ، فالمشهور بين العلماء أن تعلم العربية فرض كفاية ، لأنها من المقدمات التي تجري مجرى الآلات للعلوم الأصول والفروع ، يعني أنها آلة لعلم الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة ، وليست من العلوم الشرعية في أنفسها . وإنما لزم الخوض فيها من لغة ونحو وبيان ، بسبب تلك العلوم ، إذ كانت النصوص الشرعية بلغة العرب .[١]

(١) إحياء علوم الدين ١ : ١٦ ـ ١٧ والصاحبي ص ٦٤ ـ ٦٦ ومقدمة ابن خلدون ص ١٢٥٤ .

ومعلوم أن فرض الكفاية ، وإن لزمت جميعَ المسلمين إقامته ، يسقط بإقامة بعضهم له عن الباقين .[١] وهذا يعني أنه إذا استطاع بعض المسلمين إتقان العربية ، للقيام بما يحتاجه التشريع ، من فهم لمصادره المشهورة ، وتحقيق لحاجات الفقه بإصدار الأحكام والفتاوى اللازمة ، فبقية المسلمين في حل من لغة العرب ، يرعاها من شاء ، ويُعرض عنها من شاء .

فحسب العربية إذاً أفراد قليلون ، في كل عصر أو قطر ، يقومون بتعلمها وتعليمها ، ثم لها أن تعيش بعدُ ، في ميدان التراث المحترم المبجل . وبهذه الحال ، تكون منزلتها عملياً كسائر اللغات التي تتصل اتصالاً ما بحياة المسلمين ، سواء كانت لغة آبائهم أو لغة أممٍ مجاورةٍ أو صديقة ، أو مخالطةٍ في المعاملات الحيوية العامة . ولهذا قيل في تعليل فرْضيتها كفاية : « إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكلُّ شريعة لا تظهر إلاّ بلغة ، فيصير تعلم تلك اللغة آلة » .[٢] أما إذا كانت ، كما ذكرتُ ، سنّة نبوية فالمسلمون جميعاً مسؤولون عن تحققها في الحياة ، واستمرار ممارستها في المهارات اللغوية المختلفة .

ثم إن اعتبارها فرض كفاية يقتضي أن إتقانها ينحصر في حدود القراءة والفهم ، لصفحات الكتب الشرعية القديمة ، دون الأداء التعبيري باللسان والقلم ، فتمّحي من ميادين الإنتاج العلمي والأدبي وسائر مرافق الحياة . فالذين ذكروا حكم فرض الكفاية هذا زعموا أن الكتابة العربية ليست منه ، لأن النبي ﷺ كان أُمياً .[٣] وهذا عين ما رمى إليه دعاة الحرف اللاتيني ، واللهجات العامية ، والتذهب باللغات الأوربية ، وهو خلاف ما تقتضيه السُّنّة ، من حضور كامل في الممارسات اللغوية كافة .

(١) التعريفات للشريف الجرجاني ص ١٧٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ : ١٧ .

(٣) إحياء علوم الدين ١ : ١٦ . بل لقد قيل أيضاً : إن ما يوصل إلى إتقان العربية ، من العلوم ، هو بدعة ، وكل بدعة ضلالة . والجواب أن الصحابة كانوا يعرفون النحو ، وإنما المبتدع هو الاصطلاحات ، وهي بدعة حسنة . مفتاح السعادة ١ : ١٤٤ .

والسير مع الفرض الكفائي إلى آخر مداه يزيل حكم السُّنة ، في تعلم العربية ، ويحصره في وظيفة فهم النصوص الشرعية وحدها . أما مصادر التراث العلمي والأدبي ، والتواصلات الحيوية في الميادين المختلفة ، من محادثة وكتابة وخطابة ومراسلة ، وبحث علمي وفلسفي وفني واقتصادي واجتماعي ... فتترك للهجات المحلية تستوفيها ، وتقوم بأدائها كما تيسر .

وبذلك تصبح العربية لغة كهنوتية ، يختص بها فئة من العلماء ، يقال لهم : « رجال الدين » ، يرددونها على أسماع المسلمين المستعجمين في المناسبات الدينية ، دون أن يكون لها صدى في النفوس ، أو أثر في القلوب ، لأنهم لم يستوعبوا منها شيئاً . وهذا ما نراه شائعاً في لغات الوعظ لدى أهل الكتاب ، بعد مرور قرون على الابتعاد من لغاتهم القديمة .

إنك لترى رجال الدين في النصرانية يرددون صلواتهم ، باللغات الخاصة كالسريانية واللاتينية ، وأحبار اليهود يرددونها بالعبرية في البلاد التي لا تعرفها أيضاً ، وجمهور السامعين لا يدرك من ذلك إلاّ الخشوع والاستسلام ، ثم لا يمارسون تلك اللغات في شيء من النشاط الحيوي . وما أظن أحداً من المسلمين أو العرب يرضى للغته مثل هذا المصير .

وقد بدا لي أن العلماء ـ والله أعلم ـ حين ذكروا فرض الكفاية في تعلم العربية ، قصدوا القاعدة الأعم التي تشمل جميع الشعوب الإسلامية . وبذلك يتوزع حكم العربية فيما يشبه هرماً ذا أربعة أوجه ، تناسب المهارات اللغوية . فيكون للمسلمين جميعاً قاعدته في الفرض الكفائي ، شاغلاً مهارتَي القراءة والفهم فحسب . هذا مع وجوبٍ على كل فرد أن يتعلم ، من العربية ، ما يؤدي به عبارة التوحيد ، وتلاوة ما يقيم الصلاة ، وإيراد ما يجب من التسبيح والتشهد ، كما قال الإمام الشافعي .[1]

(١) الرسالة ص ٤١ . وانظر فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ص ٢٩ و٤٩ .

ثم يكون للعرب منهم خاصة ما هو حكم شرعي مفصل ، بحسب الوظائف والمهن التي يقومون بها ، والنشاطات والهوايات التي يمارسونها . وهذا ما رمينا إليه حين أوردنا حكم السُّنّة في ذلك ، وهو معرض التفصيل الذي أوردنا بعضه ، ونوالي متابعته الآن .

فقد كنا ذكرنا أن العربية الفصحى من السُّنّة المباركة ، التي عُرّفت بأنها : « ما صدر عن النبي ﷺ ، من قول أو فعل أو تقرير » .[١] ذلك لأن كلامه لازمَ الفصاحةَ في جميع مواقفه وخطابه ،[٢] وتكلُّمه سلوك اجتماعي ، أي : فعل واقعي لا يختلف فيه اثنان ، ثم تقبُّلُه كلامَ الصحابة ـ وكلهم يمارسون لغة العرب ـ إقرارٌ وقبول . ولستَ تخالف الظاهر ، إن زعمتَ أنه قول أيضاً .

وإذا أضفت إلى ذلك أنه قد حضَّ على فصاحة العروبة ، ودعا لمن لزم الفصاحة بالرحمة ، وأمر بذلك فيما روي عنه :[٣] « رَحِمَ اللهُ امرأً ، أصلَحَ مِن لِسانِه » ، و « أعرِبُوا الكلامَ ، كَي تُعرِبُوا القُرآنَ » ، فقد اجتمع لديك الأدلة الثلاثة على سُنِّيّة عروبة اللسان ، وهي كل ما ذكر في التعريف .

وإذا تذكرتَ معي ، أن بعض « ما واظب عليه النَّبي ﷺ دون وجوب » يقال له سنّة مؤكدة ، وأن مواظبته كانت على العربية دائمة ، رأيتَ التزام لغة العرب ذا خصوصية ظاهرة ، من هذا النوع النبوي الكريم ، وهو قريب جداً من الواجبات . وهذا أولى من القول : « إنها فرض كفاية » ، في التعميم والشمول .

ثم إذا وسعتَ مفهوم السُّنّة ، كما يرى بعض الفقهاء ، وجعلته يتضمن « ما سلكه

---

(١) التعريفات ص ١٢٨ .

(٢) الوفا في أحوال المصطفى لابن الجوزي ص ٤٥٦ .

(٣) الجامع الصغير ٢ : ١٩ و ١ : ٣٩ وإيضاح الوقف والابتداء ص ٢٢ والإيضاح في علل النحو ص ٩٦ وكشف الظنون ص ١٩٣٤ . واللسان : المهارات اللغوية كافة .

رسول الله أو غيره ، ممن هو علَم في الدين كالصحابة ، رضي الله عنهم » ،[١] عملاً بقوله عليه السلام :[٢] « فعَلَيكُم بِسُنَّتي وسُنّةِ الخُلَفاءِ الراشِدينَ المَهدِيِّينَ ، وعَضُّوا عَلَيها بالنَّواجِذِ ، وإيّاكُم ومُحدَثاتِ الأُمُورِ . فإنَّ كُلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ ، وإنَّ كُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ » ، وتذكرتَ أن هؤلاء الخلفاء كانوا من الفصاحة بمكان مرموق ، لمستَ موجباً آخر للحفاظِ على اللغة العربية ، ومحاربةِ ما جدَّ من بدع اللهجات العامية المستعجمة .

على أن إعادة النظر فيما أوردنا ، من التزام الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين للخطاب العربي ، توجّه الباحثَ نحو نَوع خاص ، هو سُنن العادات الزوائد ، لا العبادات التي هي مكملة للدين . إنها سُنّة إسلامية من الخصائص العربية ، يطالب بها كل عربي مسلم ، وتركه إياها يستحق الحرمان من الشفاعة . حتى لقد قيل : « من اعتقد ، ولم يعمل ، فهو مؤمنٌ عاصٍ » .[٣]

وكان الفخر الرازي (ت ٦٠٦) قد عرض لهذا الموضوع في كتابه « المحرر في النحو » ، وذكر ما قيل من أن علم النحو واجب أو فرض كفاية . ثم وقف عند كِفائيته هذه ، وبيَّن أنها غير وافية بوجوبه ، إذ لا بد في كل عصر أن يقوم بهذا العلم قوم يبلغون حدّ التواتر . وهذا يعني أن العناية بالنحو يجب أن تكون أتمّ من العناية بسائر العلوم ، وهو كما ذكر أولاً من الواجبات .[٤]

ولقد روي عن الإمام الشافعي أنه قال : يجب على كل مسلم أن يتعلم ، من لسان العرب ، ما يبلغه جَهده في أداء فرضه . وروي أيضاً عن الإمام الماوردي قوله : معرفة لسان العرب فرض على كل مسلم ، من مجتهد وغيره .[٥]

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٣ : ٩ ـ ١٠ .

(٢) المسند ٤ : ١١٦ ـ ١١٧ والأحاديث ٢٦٨٧ في الترمذي و ٤٢ ـ ٤٤ في ابن ماجه و ٤٦٠٧ في أبي داود .

(٣) الكليات ٣ : ١٠ ـ ١١ .

(٤) انظر تذكرة النحاة ص ٦٨٨ ـ ٦٨٩ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٤ وفضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ص ٢٧ .

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٥٢ .

وهنا يحسن بنا أن نستفيد من نظرات الفقهاء ، في تفصيل درجات حكم الواجب على مستويات المكلفين ، لنكون واقعيين فيما نرسم من توزع المهارات اللغوية . فهم يرون أن المعارف والخبرات ، من فروض الكفاية مثلاً ، تكون بين الناس بحسب وظائفهم في الحياة . ومن ثَمَّ يجب الاستيعابُ الدقيق الكامل للعمل على من امتهنه أو تخصص فيه ، والإلمامُ بما هو ضروري على سائر الناس . فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب مثلاً فريضة ، على من يشغل وظائف الحيسوب والطبيب ، في حين أن ذلك يعد فضيلة في غيرهما ، فيستغني عنه إلاّ شذرات يحتاج إليها في حياته العامة ، للعمل وحماية نفسه وصحة الأمة .(١)

وعلى هذا يكون الصعود من قاعدة الهرم المذكور قبل ، ليكون لأصحاب الأعمال الحرة ، من تجارة وصناعة وزراعة وطب وهندسة ، ولرجال الأمن والدفاع والوظائف الحكومية العامة ، مستوى السلامة في مهارات القراءة والكتابة والتكلم والفهم . فهم يشغلون أدنى مراتب الأوجه الأربعة من الهرم ، ولا يُسألون عما هو الفصيح أو الأفصح ، لأن مهامهم العملية لا تقتضي ذلك . وإذا رقي بعضهم إحدى المنزلتين المذكورتين حاز فضيلة ، ليست مما يجب عليه .

أما الوظائف ذات المهام التعبيرية ، كالعلم والأدب والفقه والخطابة والكتابة والتعليم والسياسة والإعلام والقضاء ، فتشغل المستوى اللغوي الراقي من تلك المهارات الأربع ، مع المهارات الثلاث المتميزة للأدب والعلم والبحث ، متدرجة بين أصحابها بحسب طبيعة المُهمة التي يمارسونها . فالأدباء والخطباء والكتّاب يتسنمون ذروة البيان والدقة والصفاء ، قدوة للمخاطَبين والمريدين والمتدربين ، في حين أن زملاءهم الباقين يكفيهم الدقة والصفاء ، لينقلوا إلى الناس ما لديهم ، من معارف وأحكام وتوجيه . وبذلك يجري التحقيق العملي ، لسُنِّيّة العروبة في اللسان .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ١٦ .

ولا بد من التلبث عند إشكال ، أشرنا إلى بعضه من قبل ، ويعرض لمن يدقق السُّنّة الشريفة ، وهو أمر القراءة والكتابة . فهاتان المهارتان اللغويتان مفقودتان أصلاً ، في شخصية النبي ﷺ ، لأنه أُمّيّ لا يقرأ ولا يكتب ، كما ثبت في نصوص : القرآن الكريم ، والحديث الصحيح ، والتاريخ القويم . وذكرهما في حيِّز السُّنّة لعروبة اللسان شبهة ، تقتضي كشفاً وبياناً .

والحق أن مُورد هذه الشبهة يتجاهل الفهم الدقيق للمراد بالسُّنّة . ذلك لأنه إذا كان الرسول ﷺ قد خُصَّ بالأُمّيّة في فعله ، لحكمة ربانية تقتضيها رسالته في أمة البلاغة والبيان ، فقد جاء عنه ما يحضُّ على القراءة والكتابة ، ويوجب محو الأُمّيّة من المجتمع ، في جميع صورها . وأول ما يذكر هنا جعلُه العلمَ فريضةً ، والعلمُ لا يكون بين أبناء الأمة إلاّ بشيوعة القراءة والكتابة .

وإذا كان هذا استنتاجاً ، لا حكماً بنصٍّ صريح ، فإن ما روي من أمره لكتّاب الوحي والرسائل والمعاهدات ، وللقرّاء الذين أخذوا عنه نصوص القرآن الكريم ، كثير جداً لا يستوعبه مجال . وهو نص صريح بالقول والإقرار ، ومشمول بما تتضمنه السُّنّة من العناصر الأساسية .

ويكفي ههنا الإشارة إلى قولِه ، عليه السّلام :[1] « أعرِبُوا القُرآنَ ، والتَمِسُوا غَرائبَهُ » ، لترى الأمر بالفصاحة في القراءة جليّاً ، وإلى قبولِه الفدية من أسرى بدر بتعليم أبناء المسلمين القراءةَ والكتابة ، ليتحقق لديك العمل لمحو الأُمّية .

وهكذا يكون الهرم اللغوي قد شُغلتْ جوانبه الأربعة ، من القاعدة إلى القمة ، في مستويات متفاوتة بين الشعوب الإسلامية ، من عرب وعجم . أما غير المسلمين من العرب فأمرهم ، في التزام عروبة اللسان ، أيسر مما فصلنا وأوضح ، لأن لغة الآباء

(١) الجامع الصغير ١ : ٣٩ والمستدرك ٢ : ٤٣٩ وإيضاح الوقف والابتداء ص ١٥ . وزادت بعض الروايات في أوله : « تعلموا العربية و » . تنبيه الألباب للشنتريني ص ٥٧ .

واجب يرتبط بأصالتهم وانتمائهم القومي ، وهي عنصر أصيل من عناصر الوحدة التي تجمع أبناء العروبة ، مهما اختلفت النزعات والتوجهات . ومن الطبيعي أن تتوضع بينهم بعدٌ في مستويات ، تناسب المهام التي يشغلونها في المجتمع ، وتكون لدى جميعهم بؤرة اعتزاز وتقدير .

ولقد عرف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ[١] بمشاهدتهم الوحيَ والتنزيل ، وإدراكهم قرائنَ الأقوال والأحوال من حياة النبوة ، ما غاب عن غيرهم عِيانُه ، فثَبَتَ في نفوسهم أن العربية سُنّة شريفة . ولذلك كانوا ، بحكم عروبتهم أو تعرُّبهم ، يلتزمون فصاحة اللغة ، حتى في أحرج المواقف من الفتن والبلاء . وكل ما حفظ عنهم ، من الخطاب والمراسلات والقراءات ، يمثل ذروة الفصاحة والبيان ، ويُجعل نموذجاً للبلاغة الباقية على الدهر . وحسبك أن تتصفح مصادر التراث الأدبي ، لتجد أدلّة على ذلك يتعذر لها الحصر .

هذا في مجال السلوك اللغوي ؛ وهو عنصر العمل من سُنَّتهم . فإذا طلبتَ القول منهم ، لِلحضِّ على عروبة اللسان ، رأيتهم يتابعون الناس آمرين بالفصاحة والبيان . فقد روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول : « تعلَّموا العربية ، فإنها تثبت العقل ، وتزيد المروءة » .[٢] وأوضح من هذا أنه يقرن العربية بالدين تفقُّهاً وإتقاناً ، حيث يقول : « عليكم بالتفقه في الدين ، والتفقه في العربية ، وحسن العربية »،[٣] ويقول : « تعلموا الفرائض والسُّنن واللحن ، كما تتعلمون القرآن » .[٤] وقد فسر العلماء اللحن بأنه لغة العرب أو النحو .

(١) إحياء علوم الدين ١ : ١٦ .

(٢) الإيضاح في علل النحو ص ٩٦ وأخبار النحويين للمقرئ البغدادي عبد الواحد بن عمر ص٣٢ . وأخرجه البيهقي في سننه ، وابن أبي شيبة في مصنفه . وانظر ما تحت الرقمين ٩٠٣٧ و ٢٩٣٥٥ في كنز العمال .

(٣) الرقم ٢٩٣٥٧ في كنز العمال . وانظر تنبيه الألباب ص ٧٠ وإنباه الرواة ١ : ١٦ والفاضل ص٤ ومعجم الأدباء ١ : ٧١ وبهجة المجالس ١ : ٦٤ واقتضاء الصراط المستقيم ص٤٧٠ .

(٤) سنن الدارمي ٢ : ٤١٣ وطبقات النحويين واللغويين ص١٣ وإيضاح الوقف والابتداء ص١٥ وأضداد =

وقد تظاهرت الأخبار ، عن جمهور من الصحابة والتابعين ، بمثل ذلك أيضاً ، فهذا أُبيٌّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يقول : « تعلموا العربية ، كما تتعلمون حفظ القرآن » .[١] وقريب منه ما روي ، عن ابن مسعود والحسين بن علي وابن عباس وأبي ذر الغفاري وأبي الأسود الدؤلي ، رضي الله عنهم .[٢] ولما سئل الحسن البصري : أرأيتَ الرجل يتعلم العربية ، يطلب حسن النطق ، ويلتمس أن يقيم قراءته ؟ قال : فتعلمْها يا أخي .[٣]

أما الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ فلما أحس بتسرب اللحن إلى العربية شرع في وضع أصول النحو ، لتثبيت الفصاحة وتيسيرها في مختلف المهارات ، تكلماً وقراءة وكتابة وتلقياً وتعليماً وتأليفاً وأدباً . وذلك عندما أصّل أقسام الكلم والإعراب ، وأشرف على أبي الأسود الدؤلي ، في وضع قواعد كلية للنحو العربي .[٤] ثم كان يقرن هذا العلم الجديد في حديثه ، بالعلوم الضرورية ، فيقول : « العلوم أربعة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنحو للسان ، والنجوم لمعرفة الأزمان » .[٥]

ثم كان بعض الصحابة يخطو إلى أبعد من هذا ، ليصلح ألسنة الناس . ذلك لأنه

= ابن الأنباري ص٢٣٩ والبيان والتبين ٢ : ٢٤٧ وأمالي القالي ١ : ٥ والعقد الفريد ٢ : ٤٧٩ وتنبيه الألباب ص ٨٠ والنهاية واللسان والتاج (لحن) .

(١) تنبيه الألباب ص ٧٦ والأضداد ص ٢٣٩ والوقف والابتداء ص ١٧ و ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) انظر إيضاح الوقف والابتداء ص ١٦ ـ ١٧ و ٢٣ و ٢٥ و ٣١ـ٣٢ والعقد الفريد ٢ : ٣٧٩ والأضداد ص ٢٤٠ وتنبيه الألباب ص٧٦ـ ٨٠ .

(٣) الإتقان ١ : ١٧٩ ـ ١٨٠ والوقف والابتداء ص ٢٧ و ٢٩ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ١٢ وأمالي الزجاجي ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ والفهرست ص ٤١ ونزهة الألباء ص ٤ ـ ٦ و ٤٠٦ والإيضاح ص ٤٢ـ٤٣ وإنباه الرواة ١ : ٤ـ٥ ومعجم الأدباء ١ : ٤٨ـ٥٠ ومستدرك نهج البلاغة ص ١٦٣ وتنبيه الألباب ص ٨٣ وسير أعلام النبلاء ٤ : ٨٤ وتاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ والأشباه والنظائر ١ : ٨ وسبب وضع علم العربية ص ٣٤ـ٣٥ و ٤٣ و ٤٨ وابن عصفور والتصريف ص ٢٨ـ ٣٠ . والذين ينكرون ذلك ، من مستشرقين ومستغربين ، يعوزهم الدليل .

(٥) المستدرك ص ١٥٨ .

يرى أن اللغة العربية هي من المعروف ، وأن اللحن منكر يجب تقويمه بما يستطيع ، وأول الوسائل هو الوعظ والإرشاد . فلما سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعض المسلمين ، يلحنون في التعبير ، ذكّرهم بوجوب الفصاحة قائلاً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رَحِمَ اللهُ امرأً أصلَحَ مِن لِسانِهِ » .(١)

فإذا لم ينفع الوعظ والإرشاد ، في ردع المخاطَبين ، كان ثمة ما هو أشد وأنجع . أعني الضرب والتعزير . فقد روي أن عمر بن الخطاب أيضاً كان يضرب أبناءه على اللحن ، ولا يرى الصلاة خلف اللحّان ، وإذا رأى رجلاً يخطئ فتح عليه ، وإذا سمعه يلحن علاه بالدّرّة .(٢)

وروي أيضاً أن كتاباً جاءه من أبي موسى الأشعري ، وفي مستهلّه : « من أبو موسى » ، فأرسل إليه يأمره بتعزير الكاتب اللّحّان : « إذا جاءك كتابي هذا فاضربه سوطاً ، واصرفه من عملك » .(٣) ثم أرسل إليه أيضاً ، يحثّه على تعليم لغة العرب مَن حوله ، من الموالي والمتعربين في البصرة وفارس : « أن مُرْ مَن قِبَلَكَ بتعلُّم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام » .(٤) لكأنه يرى من سنّيّتها وجوب أن يتعلمها العجم أيضاً ؛ ولهذا فإنه لما لقي رجلاً ، يتكلم في الطواف بالفارسية ، أخذ بعضده وقال : ابتغ إلى العربية سبيلاً .(٥)

وكذلك كان عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، يعاقبان أولادهما على اللحن .(٦) ولأن الدّرة ليست في يد ابن عمر ، يقوّم بها ألسنة الناس ويعزّرهم ، فإنه لما

(١) إيضاح الوقف والابتداء ص ٢٢ .

(٢) تنبيه الألباب ص ٩٤ ـ ٩٥ وإيضاح الوقف والابتداء ص ٥١ ومعجم الأدباء ١ : ٧٩ ـ ٨٠ . وفتح عليه أي : رد عليه وصحح خطأه .

(٣) تنبيه الألباب ص ٩٠ وإيضاح الوقف والابتداء ص ٢٥ والبيان والتبيين ٢ : ٣٤٤ ومراتب النحويين ص ٦ وشرح المفصل ٢ : ٩٥ . وروي أيضاً أنه وجد في كتاب عامل له لحناً ، فأحضره وضربه . إرشاد الأريب ١ : ٢٠ ـ ٢١ . وفي ١ : ٢٥ أن عمر بن عبد العزيز كان يفعل ذلك أيضاً .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ص ١٥ و ٣١ . وانظر تنبيه الألباب ص ٧٠ .

(٥) أخبار النحويين ص ٣٤ . وقد رواه البيهقي في شعب الإيمان . وانظر الرقم ٩٠٣٨ في كنز العمال .

(٦) أخبار النحويين ص ٣٧ . وانظر طبقات ابن سعد ٤ : ١٥٥ والأدب المفرد ص ٢٥٨ والرقم ٥٧٠٣ في =

سمع رجلاً بجانبه يلحن آذاه ذلك ، وأرسل إليه : إمّا أن تَنَحّى عنا ، وإمّا أن نتنحّى عنك .[١]

وقد سار التابعون على هذا المنوال ، من إنكار اللحن ، واعتداد الفصاحة سنّة نبوية لا يجوز الإخلال بها ، حتى تسرب ذلك إلى نفوس الأعراب . فهذا أعرابي دخل السوق ، ولما سمع بعض الباعة يلحنون أخذه العجب ، أن يكونوا في بحبوحة ويسار مع انغماسهم في المنكر ، بخلاف ما عليه البادية الفصحى من الشدة والضيق ، فقال : سبحان الله ، تلحنون وتربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح !.[٢]

وكان[٣] الحسن بن أبي الحسن البصري (ت ١١٠) إذا عثر لسانه بشيء من اللحن يقول : أستغفر اللهَ . فقيل له فيه ، فقال : من أخطأ فيها [أي : في العربية] فقد كذب على العرب ، ومن كذب فقد عمل سوءاً . وقال الله تعالى : ﴿ ومَن يَعمَلْ سُوءاً أو يَظلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .[٤] ومثل هذا ما روي عن بعض التابعين ، كأيوبَ السختياني وغيره .[٥]

ولما شرع العلماء في تعليم أصول الفصاحة ، وتيسير نمائها في ألسنة الموالي والأعاجم ، اطمأنت نفوس الصالحين . وقد عبر عن ذلك الإمام الزهري محمد بن مسلم (ت ١٢٤) بقوله : ما أحدث الناس مروءة ، أعجبَ إليّ من تعلم النحو .[٦]

= مصنف ابن أبي شيبة ، وإيضاح الوقف والابتداء ص ٢٤ ـ ٢٥ والأضداد ص ٢٢٤ وتنبيه الألباب ص ٧٣ وإرشاد الأريب ١ : ٢٦ وميزان الاعتدال ٣ : ٦٣٩ والإحكام في أصول الأحكام ٢ : ٨٩ وروضة الأعلام ص ٧ وبهجة المجالس ١ : ٦٤ والألف باء ١ : ٤٣ .

(١) أخبار النحويين ص ٣٠ .

(٢) تنبيه الألباب ص ١٢٣ وإرشاد الأريب ١ : ٢١ .

(٣) إرشاد الأريب ١ : ١٤ ـ ١٥ .

(٤) الآية ١١٠ من سورة النساء .

(٥) أخبار النحويين ص ٤٩ وحلية الأولياء ٣ : ١١ وسير أعلام النبلاء ٦ : ١٩ .

(٦) إرشاد الأريب ١ : ٢٠ وإيضاح الوقف والابتداء ص ٣٤ .

واستطاعت تلك الروح الطيبة ، الحريصة على ضفاء لسان العرب وفصاحته ، أن تسري في القرون التالية ، وتجد لها مخلصين من الأئمة ، يسهرون على تغذيتها بالنماء والحضور . وقد كان في التاريخ أخداث كثيرة ، تتحسس هذا الجانب الخطير في حياة العرب ، وتذب عن سُنِّيّته في الوجود . من ذلك ما روي عن الإمام مالك (ت ١٧٩) ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « من تكلم ، في مسجدنا ، بغير العربية أُخرج منه » .[١] وقد أنكر أبو زيد الأنصاري (ت ٢١٤) ، على رجل يحدثه بكلام هجين ، وعنفه بما يزجره ، فقال الرجل : أتتهمني في دين الله ؟ قال : أتَّهمك في لغة رسول الله .[٢]

وها نحن في القرن الثامن ، نسمع صوت شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨) ، يتردد في جنبات التاريخ قائلاً :[٣] « كان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن . فنحن مأمورون أمر إيجاب ، أو أمر استحباب ، أن نحفظ القانون العربي ، ونصلح الألسن المائلة عنه » . ثم يزيد الأمر وضوحاً ،[٤] بأن عروبة اللسان هي شعار الإسلام ولغة القرآن ، ومخالفتها من المكروهات المنكرات ، « وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية ، حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب ، فيظهر شعار الإسلام وأهله » . فلستُ أُبالغ ، بعد هذا كله ، إذا زعمتُ أن حكم الإجماع منعقد على الوجوب الشرعي ، لعروبة اللسان ، في نفس كل مسلم عربي .

٢ ـ الممارسة العملية :

وهذا هو العامل الثاني لحلِّ مشكلة المهارات اللغوية ، وتحقيق التنمية لفصيح العربية . فالأصل في التعليم هو نقل مكتسبات الخبرة والتجربة والبحث ، ليستفيد الخلف من السلف ثمراتِ الجهود والمعاناة ، وسائلَ حياة ناجحة كريمة ، يوظفونها في

(١) فتاوى شيخ الإسلام ٣٢ : ٢٥٥ .
(٢) أخبار النحويين ص ٤٣ .
(٣) الفتاوى ٣٢ : ٢٥٢ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٠٦ .

شؤونهم العامة والخاصة ، دون أن يُضطروا إلى تكرار ما بذله الأقدمون ، للوصول إلى تلك المكاسب . فهل نحقق هذا الأصل في ممارسة العربية ؟

يتلقى المواطن العربي ، في المراحل الدراسية المختلفة ، علوماً كثيرة تنصبّ في الحيِّز اللغوي ، كالقراءة والتعبير والنحو والصرف والبلاغة ، حتى إذا نال الشهادة الثانوية أصبح مزوداً بالمواد العلمية الكافية ، لتكوين لغة صحيحة سليمة ، تمثل وجه العروبة الصافية من الأدران .

وإني لأزعم أن مناهج علوم العربية ، في تلك المراحل ، هي أكبر مما تحتاج إليه المهارات اللغوية في الحياة العملية . فحبذا لو حذف منها ما يتعرض للوجوه المختلفة في أحكام النحو والبلاغة ، وما يكون له وجوه في الإعراب ، وما لا حضور له في الأداء كالصور المتعددة ، في مثل المفعول معه والمستثنى والتمييز والاسم بعد « لا » ، والتعابير المصطنعة في أساليب التعجب والمدح والذّم والإغراء والتحذير ... وإذا حُذفت تلك الاستطالات الاستعراضية كانت مناهج النحو في كتيب صغير ، لا يتجاوز العشرات من الصفحات ، فتوزع معلوماته بتدرج في التوسعة والتفصيل مع التطبيق العملي ، في مقررات السنوات الدراسية المناسبة .

ولو تيسر لنا أن نستخدم المعلومات اللغوية المصفّاة ، في ميادين الحياة كلها ، بوفاء واهتمام وجد وبساطة ، لكان لدينا مهارات في الأداء سليقية تلقائية ، تحفظ لغة العرب وتنفحها الحيوية والمعاصرة والنماء . غير أن ما يحصل بالفعل ، في هذا الجانب الأصيل من شخصيتنا العربية ، خلاف لما تقضيه حاجات اللسان العربي ، من الممارسة في مختلف المهارات .

فالواقع أن ما يتلقاه المرء ، من تلك المعلومات والخبرات ، يبقى حبيس الذاكرة والاختبار أثناء الملازمة لمقاعد الدرس ، ليُكرِّره باللسان استذكاراً وعلى الورق تحريراً ،

وبين الناس تفاصحاً وتعالماً . حتى إذا تملص من تلك المقاعد غربت المعلومات المحتبسة ، واستعادت العامية سلطانها على الألسنة والأقلام والأفهام ، فلم يبق للفصاحة إلاّ نسبة ضئيلة من مظاهر العروبة ، لدى بعض المتأدبين والعلماء . هذا إذا كانت ساعات الدرس اللغوي تُشغل بفصيح التعبير . فكيف إذا كانت تلك الساعات يغلب عليها رَطانات العامية والعجمة ؟

الحق أننا جميعاً مسؤولون عن هذا التسيب اللغوي المقيت . فالمعلمون والإداريون والموجهون ، والآباء والأمهات والطلاب والطالبات ... كلهم يرون علوم اللغة مقررات دراسية للحفظ والمذاكرة ، لا صلة لها بالتوظيف في أداء المهارات العملية السليمة ، ولا علاقة لها بالشخصية العربية العزيزة الكريمة . ولذلك لا يعملون لتحقيق السلوك اللغوي الذي يُنتظر من ذلك التعليم . إنهم يفصلون بين العلم والعمل ـ وهذا موطن الداء ـ مع أننا جميعاً نؤمن بالخطأ الفادح في هذا الفصل الغبي ، ونحفظ أو نسمع من الوعيد ما تقشعر له الأبدان ، دون تنبه أو اتعاظ .

هذه آيات الرحمن تقرع المسامع والقلوب ، مذكرة أن الإيمان لا بد أن يقترن بالعمل ، وإلاّ كان عاجزاً عن تحقيق معناه . وأقرب ما يذكر هنا التوبيخ تقريعاً وتبكيتاً ، مع التعجب والتهكم بما يصدر عن المتهاونين : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا ، لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفعَلونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تَقُولُوا ما لا تَفعَلونَ ﴾ !(١) إنه إنكار صريح مع التعبير أحياناً بأشد البغض ، للتشدق بما لا يُفعل كَمَثل الشعراء ، ولعدم فعل ما يُعتقد أو يقال من الخير والصلاح ، كَمَثل الحمار يحمل أسفاراً .

وروي عن قتادةَ السدوسي التابعي أنه فسر قول الله تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَذُو عِلمٍ لِما عَلَّمْناهُ ﴾(٢) ، بقوله : إنه لَعاملٌ بما علم .(٣) وقال معاذ بن جبل ، رضي الله عنه :

(١) الآيتان ٢ و ٣ من سورة الصّف .

(٢) الآية ٣٨ من سورة يوسف .

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٨٤ .

« اعملوا ما شئتم بعد أن تَعلموا . فلن يأجركم الله بالعلم حتى تَعملوا » .[١] وعن الإمام علي ، رضي الله عنه :[٢] « إنَّ كمال الدين طلبُ العلم والعملُ به » ، و « إذا علمتم فاعملوا ، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل لا يستفيق من جهله . بل الحجة عليه أعظم ، والحسرة له أدوم » ، و « تعلموا العلم تُعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله » .[٣]

فالقول يجب أن يصدِّقه الفعل ، دلالة على التحقيق والإنجاز : ﴿ إنَّ الَّذِينَ قالُوا : « رَبُّنا اللهُ » ، ثُمَّ استَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلائكَةُ : أن لا تَخافُوا وَلا تَحزَنُوا ، وأبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ ﴾ .[٤] وخير من هذا منزلة أن يَسبق الفعلُ ادعاءَ الإنسان فضلاً : ﴿ ومَن أحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعا إلى اللهِ ، وعَمِلَ صالِحاً ، وقالَ : إنَّنِي مِنَ الْمُسلِمينَ ﴾ ؟[٥]

وقد تعددت الأحاديث والآثار ، تحذر من مثل ذلك الانفصام في الشخصية ، بين ضمير يحمل المعارف ، وامرئ يعيش بعيداً منها في الممارسات الحيوية . فكثيراً ما كان النَّبي ﷺ يتخوف مثل هذه المواقف ، ويقول موجهاً أمته : « سَلُوا اللهَ عِلماً نافِعاً ، وتَعَوَّذُوا باللهِ مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ » ،[٦] ثم يردد على الأسماع ما يحقق هذا المعنى : « اللَّهُمَّ ، إنّي أعُوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ » .[٧]

إنه حث على التحقيق الواقعي لما يتعلمه الإنسان من معارف ، وتحذير من التبجح

(١) سنن الدارمي ١ : ٧٠ .
(٢) مستدرك نهج البلاغة ص ١٨٣ و ١٧٧ .
(٣) سنن الدارمي ١ : ٧٠ .
(٤) الآية ٣٠ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٣٣ من سورة فصلت .
(٦) الحديث ٣٨٤٣ في ابن ماجه .
(٧) سنن النَّسائي ٨ : ٢٨٤ والترمذي ٩ : ١٥٨ وابن ماجه ص ٩٢ و ١٢٦١ والمستدرك ١ : ١٠٤ والجامع الصغير ١ : ٩٣ .

واستعراض المعلومات والمهارات ، لنيل الشهادات الفارغة ، دون عمل يفيد الأمة ويرفع مستواها في الوجود ، ومن الانصراف إلى تفاهات الضلال والتخريب . ذلك لأن ما لا ينفع من العلم هو إما المعارف الفاسدة ، كالسحر والطلسمات والشعبذة ،[١] وإما معلومات تتوضع في الذاكرة حيناً ، ولا يكون لها فائدة في الحياة العملية ظاهرة ، تناسب ما بُذل لها من جهود وأموال وأوقات . والمسألة اللغوية هي من النوع الثاني ، إذ يكون مردود مناهج العربية ، فيما يصدر عن جماهير العرب من نشاطات تعبيرية ، باستثناء عدد محدود منهم ، قليلاً جداً لا يبلغ عُشر معشار ما ينجزون .

فإن قيل : إن هذه الظاهرة ، في بلاد المسلمين والعرب ، تعم ميادين التعليم طراً ، وليست خاصة باللغة . قلنا : إن المصيبة إذاً أضخم ، والخطب جسيم والمصير خطير . فكم هي فادحة خسارتنا هذه ، تُبذل القناطير المقنطرة من الأموال ، والألوف من الأيام في التعليم شرحاً وتدريباً واختباراً ، ثم تكون النتيجة هزيلة جداً ! المشهور في قوانين التعلم أن ما يتلقاه الإنسان يَفقد في الممارسة درجات ضئيلة من مردوده ، تُغتفر آثارها بالنسبة إلى الإنجازات العملية التي تتحقق . أما أن يكون المفقود أضعافَ أضعافِ ما يمارس فهذا بلاء من الله عظيم .

ولذلك جاء في الحديث الصحيح أنه « لا تَزُولُ قَدَما عَبدٍ يَومَ القِيامةِ ، حَتَّى يُسألَ عَن عُمُرِهِ : فِيمَ أفناهُ ؟ وعَن عِلمِهِ : فِيمَ فَعَلَ » ؟[٢] وقد روي أنه يُسأل عن علمه فيدَّعي أنه فَعل وفَعل ، فيقال له : إنما فعلت ذلك ليقال عنك : عالم . وقد قيل . خذوه إلى جهنم . ولهذا قال أبو الدرداء : « ويل لمن لا يعلم ولا يعمل مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات » ،[٣] وقال : « أخوَفُ ما أخاف ، إذا وقفت بين يدي الله ، أن يقول : قد علمتَ . فماذا عملتَ » ؟ وروي أن الخَضِرَ قال لموسى ، عليهما السَّلام :

(١) إحياء علوم الدين ١ : ١٦ .

(٢) سنن الترمذي ٧ : ١٣٦ . وهو في منهل الواردين شرح رياض الصالحين ص ٢٩٨ . مُصحّف فليصحح .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢ : ٤ .

« تعلَّمِ العلمَ لتعملَ به ، ولا تَعَلَّمْه لتُحدِّث به ، فيكونَ عليك بوره ، ولغيرك نوره » .[١] وقالت أم الدرداء لرجل : هل عملتَ بما علمتَ ؟ قال : لا . فقالت له : فلِمَ تستكثر من حجة الله عليك ؟ [٢]

وقد يقال : إن العلم الوارد فيما ذكرتَ يراد به ما هو شرعي ، وأنت في صدد الحديث عن المهارات اللغوية . والجواب أن الأحاديث التي أوردناها قد ذكرَتِ العلم النافع ، ولم تخص نوعاً معيناً منه ، ولا يختلف اثنان في منفعة اللغة العربية ، للمسلمين عامة والعرب خاصة . أضف إلى هذا أن ما تعرضنا له ، من أن ممارسة العربية فرض كفاية على عموم المسلمين ، وسنّة نبوية مؤكدة لعربهم ، يجعلها ذات صفة شرعية ظاهرة . ثم إنه روي عن الأوزاعي أنه قال : « العلم ما جاء عن أحد أصحاب محمد ﷺ ، وما لم يجئ عن واحد منهم فليس بعلم » ،[٣] وقد رأينا فيما مضى حرصهم على لغة القرآن والرسول الكريم ، مما يضعها بين العلوم المعتبرة في الشرع الإسلامي .

٣ ـ الاعتزاز بالعربية :

أما العامل الثالث ، لتنمية المهارات اللغوية العربية ، فهو وضعُ الفصاحة في قمة الشخصية ، بعد الإيمان والصلاح ، واستحضارُها في نفوسنا عزة وكرامة للأمة ، وهاجساً ملحاً يَشغل التفكير والتدبر والسعي الحثيث ، شأن ما نخص به أنفسنا وأبناءنا ، من تأمين الطعام والكساء والدواء والتدفئة والتهوية ، وما نوليه من الاهتمام لكراماتنا المهدرة وأوطاننا المستعمرة . فإذا استطعنا أن نفعل ذلك ، بعد معرفتنا وجوبَ تحقيق العربية ، وارتباطَ العلم بالعمل ، نكون قد وضعنا المشكلة في بؤرة شعورنا ، وهيأنا لها البيئة الصحية الناجعة .

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .

(٢) صيد الخاطر ص ٦٦ .

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٢٩ .

فليكن همنا وهاجسنا في تقويم اللسان العربي المبين . وهو سبيل من طاعة الرحمن يباركه ، ويمده بالعون والتوفيق والصلاح ، لأنه خدمة كريمة للُغةِ كتابه وسُنّةِ نبيِّه وشعارِ دينه . وبذلك يصير لنا الأجر والفضل ، في جميع التوجهات ظاهرة وخفية . فقد جاء في الحديث القدسي عن ربِّ العالمين : « إنِّي لَستُ أتَقَبَّلُ كُلَّ كَلامِ الحَكِيمِ ، ولكِنِّي أتَقَبَّلُ هَمَّهُ وهَواهُ . فإن كانَ هَمُّهُ وهَواهُ في طاعَتِي جَعَلتُ صَمتَهُ حَمداً لِي ووَقاراً » .[1]

وهذا يعني أن تعيش مظاهر العروبة اللغوية ، في الألسنة والأقلام والأفهام والخيال ، صوتاً وصرفاً وصيغة وتركيباً وبلاغة وبياناً ، وتَشغل قلوبنا في كل عمل نقوم به ، لا أن تبقى حبيس تعليمات مدرسية محدودة ، ومجال امتحان كتابي مزور ، لنيل الدرجات المدرسية والعلمية الرسمية ، والتشدق بالتعالم والامتياز . وإنما يتيسر ما ذكرتُ بأساليب مختلفة ، من الرعاية والعناية والممارسة الواعية ، في ميادين الحياة العملية .

وقد عرضت لتلك الأساليب ، في أبحاث متعددة نشرت من قبل ، فكان منها الاعتزازُ بعروبة اللسان لنفي اللهجات المحلية ، وتسفيهُ الدعوات المثبطة لصحوة العربية الجيدة ، وتقويمُ وسائل التعليم والتربية اللغوية ، وتوجيهُ مصادر الثقافة والإعلام ، وتهيئةُ المُناخ العربي السليم في قطاعات المجتمع المختلفة ، وتشجيعُ الدراسات اللغوية ، وتوظيفُ الحديث النبوي الشريف في الدراسات اللغوية والنحوية ، وتعريبُ جميع العلوم ، وتقليصُ الإيفاد إلى بلاد العدو ما أمكن ، وإعدادُ القدوة الصالحة في شخصيات المدرسين والموجهين والإداريين عامة ، ومعلمي العربية خاصة ، وتوجيهُ المصادر المقروءة والمسموعة بالسلامة اللغوية ، والإشرافُ اللغوي على المنشورات ، كما هي الحال في الإشرافين السياسي والديني ، والفصلُ بين النحو العلمي

---

(١) سنن الدارمي ١ : ٧٠ .

الذي هو للمتخصصين ، والنحو العملي الذي هو زاد لجميع أبناء العروبة ، وتسديد القراءة الصامتة في جميع المطالعات العلمية والثقافية والترويحية ،[١] وسيادةُ الفصيح أولاً وأخيراً لزوال الازدواج اللغوي .

وإنما يتسنى لنا ذلك كله باصطناع لهجة للتعبير اليومي ، في الشارع والبيت والسوق ، تكون في منزلة بين الفصيحة والهجينة ، وهي اللغة الوسطى . أعني التعبير المبسط الذي نراه اليوم بين المثقفين الحريصين على عروبة اللسان ، يتحاورون بلهجة سليمة الصيغ والأصوات والتراكيب ، مع تسكين لأواخر بعض الكلمات ، واختيار للمفردات البسيطة المعبرة . وبذلك تنزوي الرَّطانات الأعجمية والعامية ، وتزول الشُّقّة العميقة بين لغة الكتابات الأدبية والعلمية ولغة الأحاديث اليومية ، لمصلحة الأولى ، ثم يكون تنمية للمهارات اللغوية الصالحة ، واستقرار لأوضاع اللسان العربي .

وهنا لا بد من الوقوف إزاء مشكلة تربوية عامة ، تسد منافذ الإصلاح والتقويم ، وتهيئ تربة صالحة للإحباط التعليمي الذي ذكرت من قبل . فقد أشرت فيما مضى إلى ضآلة المردود العملي ، في ميادين الحياة ، لجميع الجهود المبذولة في مراحل الدراسة . **والسبب الأول في ذلك عندي هو الأسس الأولى للسياسة التربوية القائمة .**

ذلك أن واضع هذه الأسس هو أيد خبيثة ، ونفوس موتورة حاقدة على حضارة الإسلام والعروبة . فالمعروف في تاريخ التعليم المعاصر لأمتنا أنه من وضع صنائع الاتحاديين أو المستعمرين ، فكان في توزيع المراحل الدراسية ، وإعداد المناهج والمقررات والمعلومات ، ووسائل التربية والتعليم ، وأشكال التدريب والاختبار ، وتقويم المهارات والمعلومات وأسماء كثير من الشهادات ... صورٌ شائهة عما يريده العدو لنا ، من التحذلق والْخَواء .

---

(١) الغريب حقاً أن يغفل المربون أهمية تقويم هذه القراءة ، في مؤتمراتهم المخصصة للعربية ، لتبقى العامية هي الرائجة فيما يقرؤه العربي لنفسه . انظر ص ٣٦٩ ـ ٣٧٤ من تطوير مناهج تعليم القراءة ، في تونس سنة ١٤٠٤ .

وقد تُوِّج هذا كله بخواتيم المراحل الدراسية الجامعية ، حيث تكون حفلات التخرج للناجحين ، بحضور أهاليهم والأصحاب ، وترؤّس العمداء والأساتذة . وهنا يجب أن يرتدي هؤلاء الرؤساء والطلاب مسوح الرهبان والأحبار ، ليتسنى للأخيرين حضور الاحتفال ، ونيل إجازات التخرج .

وكذلك الشأن في جلسات الحكم ، لمناقشة الرسائل الجامعية العليا . فأعضاء لجنة الحكم والطالب الْمُعِدّ للبحث يخضعون لذلك الشعار ، وقد يتقلنسون بتلك القبَّعات المقوَّيات الواسعة السقوف ، وكأنهم يكرِّسون أُسقفاً أو حَبراً من الأحبار . والعجيب أن هذا شائع حتى في بعض الجامعات الإسلامية التي أسست ، لخدمة الشريعة والسُّنّة النَّبوية وعلوم الإسلام ، وفي كثير من ساحات القضاء .

ولم يكتف العدو بهذا القدر من التهديم والاحتواء ، بل وزع جواسيسه ومبشريه في مراكز التوجيه والتنفيذ للتعليم ، حتى غرس مقاصده في المناهج والمقررات ، والكتب التعليمية والنفوس المسؤولة . ثم تبرع باستقدام وافدين منا إلى بلاده ، ليصنعهم على عينه مُبَرمَجين مُدَبلَجين ، ويعودوا إلينا أمناء على المخططات الموضوعة ، يتسلمون الزمام من المنصِّرين الراحلين . كذلك عاشت مسيرة التعليم في ديارنا ، منذ ما سُمِّي بعصر النهضة المزعوم .

فقد فُرِّغت العناصر التربوية من مضمونها العربي الإسلامي ، لتُملأ باستعلاء الغرب وغطرسته ، وسلطانه في الحضارة والعلوم ، وتبعيتِنا لكل ما يفد علينا من الرياح الغربية . ولهذا جاء عصر النهضة ، كما زعموا ، بغزو نابليون لمصر ، وغَرسِ الانبهار بأوربة والتبعية للقيم الغربية الرائجة .

أما القرون التي سبقت ذلك ، في ديارنا ، فهي عصور وصفت بالانحطاط والتخلف والرجعية ، على غرار ما ساد في أوربة قبل نهضتها ، وتحررها من سيادة الكنيسة ورجال الدين . وقد درَسنا هذا ودرَّسناه ، في المراحل المختلفة من حياة التعليم ، من رياض الأطفال إلى الدراسات الجامعية العليا . وما زال هو المستبد بمفاهيم الأجيال والمناهج .

فالتاريخُ الإسلامي ، كما زعموا وسجلوا أيضاً ، كله فتن ومجازر وصراع على السلطة والاستبداد ، والفكرُ العربي سطحي عاطفي ساذج ، والعلومُ الإسلامية والعربية اجترار لحضارة الفرس واليونان والسريان والهنود ، والعلومُ الاجتماعية والتطبيقية المعاصرة مصدرها الفكر الأوربي ، بمصطلحاته ومفاهيمه ومقاصده ، والعلومُ الإنسانية كذلك ، تغلف بروح أجنبية وافدة ، لتوجه الفهم والتذوق والانفعال ، والتربيةُ الدينية رموز شكلية ، لا تغرس فضيلة ولا تستطيع أن تدفع إلى اعتزاز أو صلاح ، أو إدراك حقيقي للعقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع .

ثم إن التربية العامة ، كما قالوا ، ذات شِقَّين : قديم بال تتوضع فيه جميع صور المفاسد والشقاء ، وحديث متفتح يستأثر بكل خصائص الخير والفلاح ، لأنه نشأ في الغرب وانعقدت ثماره هناك . بل إن البحث العلمي المجرد أيضاً ليجب أن يعيش في مستوى محدود ، لا يتجاوزه في جميع مرافق الحياة . وإلاّ كان خروجٌ على السياسة العلمية المفروضة ، علاجه التصفية الجسدية أو العقلية ، أو الاحتجاز بوسائل الإغراء والقهر والإرهاب . ولذا نرى ما يسود حياتنا من إحباط علمي ، وانفصام للشخصية بين المعرفة والمهارات .

ومن العوامل المرسِّخة لذلك أن القائمين على السياسة التربوية التعليمية ، في أوطاننا المختلفة ، أكثرهم ربائب التوجيه الأجنبي والانقياد له ، قد تشبعت نفوسهم باستعلاء القيم الدخيلة ، من مذاهب الشرق والغرب . فإذا كل تعديل أو ترميم لشيء من أوضاع التعليم يجب أن يكون مطابقاً ، لما كان يجري هناك قبل عشرات السنين ، بعد أن ثَبَتَ إخفاقه وذهبت ريحه . وعلى هذا المنوال تتكرر النكسات ، وتتوالى خطوات التخلف والانفصام بين العلم والإنجاز .

وقد استطاعت تلك السياسة المرسومة على يد العدو أن تأخذ طريقها ، وتصل بنا إلى حافة مادية خطيرة جداً ، تفاضل بين المصير للمثقف وغيره ، في منافع الكسب

والسلطان ، بعد أن تخرجت الملايين في الجامعات ، وذاقت مرارة الحرمان والكفاف . ومن ثَمَّ ظهر الاعتقاد أن طريق العلم أقرب إلى البطالة أو الفقر ، وأن المهن العملية محط الغنى والفلاح ، لما يُسوَّغ فيها من كسب خفي ، بالغش والاحتكار والتهريب والرشوة والاستنزاف للجماهير .

أضف إلى هذا شعوراً واضحاً ، بإخفاق المدارس والمعاهد والجامعات ، في تحقيق وظائفها التعليمية الهزيلة المدخولة . فأصبحتَ ترى في كل بيت ميسور مجموعة من المدرسين الخصوصيين ، يسهرون على تعليم الأبناء جمهورَ المناهج ، بالشرح والتفصيل والتدريب والتطبيق . وقد حاول ذوو الدخل المحدو مجاراة أولئك الميسورين ، فكان منهم من حرم أسرته ضروريات المعاش ، ومنهم من سلك السبل المحرمة لتأمين حاجات التدريس . وبذلك صار في كثير من المنازل مدارس منظمة ، لها برامج ودورات ومكافآت .

ولعل ما ذكرت بعضه هنا كاف للشعور بالمسؤولية ، نحو إصلاح السياسة التربوية التعليمية ، لنضع لها أسساً جديدة بعيدة عن مقاصد العدو ، ومنبثقة من طبيعة حضارتنا الخالدة ، والمفاهيم العربية الإسلامية ، التي استطاعت أن تصنع إنساناً يقود العالم بقيمه وعلمه وعمله . إنه الإنسان نفسه ، غذته تلك الأساليب القويمة فكان مثال التفتح والإنتاج ، في ميادين البحث والنشاط والإبداع والتحرر والسيادة ، واستعبدته غزوات التنصير والاستعمار ، فإذا هو عاجز قاصر ، ينتظر العون من عدوه ، بمصادر الغذاء والكساء والعلم والعمل والشفاء . وإذا صَلَحَتِ السياسة العامة المذكورة كان لعروبة اللسان نصيب منها ، بتقويم مظاهر الانحراف والانفصام .

٤ ـ القدوة الرائدة :

وهذا آخر عامل به نُنهي مشكلة الاستعجام في اللسان ، ونُصلح المهارات اللغوية المختلفة . وأعني به التنفيذ المسؤول ، لما ذُكر في العوامل الثلاثة الماضية ، إظهاراً لما غاب

عن حياتنا من السُّنّة الشريفة ، في الفصاحة والبيان . وذلك بتبنِّي هذه الخَصلة الكريمة لإحيائها وبعثها إلى الوجود ، بعد أن سادتها قرون من الإهمال والنسيان . فالبلاد العربية انحدرت في حمأة اللهجات المحلية والأعجمية ، منذ بضعة قرون ، وشغلت عن لغة القرآن والحديث الشريف وآثار الصحابة والتابعين ، وهي بحاجة إلى صحوة لغوية ، تعيد إليها الأصالة والصفاء .

إن إحياء السُّنّة عبادة مقررة ، ينال صاحبها ثواباً لا ينقطع ، مادام لها النفاذ والاستمرار . فعن الرسول ﷺ : « مَن أحيا سُنّةً مِن سُنَنِي ، فعَمِلَ بها النّاسُ ، كانَ لَهُ أجرُ مَن عَمِلَ بها ، لا يَنقُصُ مِن أُجُورِهِم شَيئاً » .[1] فإذا تبنت مؤسسة تعليمية ذلك ، كجامعة أو كلية أو معهد أو مدرسة ، وأعطَتِ العربيةَ الفصحى حقها من الحضور ، في جميع مواد التدريس ، والمجالس الإدارية والفنية ، والامتحانات الكتابية والشفهية ، وحاسبت على ذلك حساباً ظاهراً ، بمكافأة المحسن وعقاب المسيء ، وسمحت باللغة الوسطى حواراً في غير ذلك من النشاط ... استطاعت أن تنمي التفكير بالفصحى ، والإنتاج العربي الخالص ، وأن تكون قدوة صالحة لغيرها من المؤسسات .

وبذلك تتحقق تلك التطلعات التي عدَّدتُ بعضها في العامل الثالث ، وتشيع بين أفراد الأمة وقطاعاتها المختلفة ، وتصبح حقيقة ظاهرة على كل ألوان الاستعجام والاستغراب . وإني لأتوسم في الجامعات الإسلامية العربية من يحمل هذا العبء ، ويكون رائداً لبذرِ الصحوة اللسانية ، ومحوِ آثار اللهجات العامية المستبدة ، وتكوينِ المهارات اللغوية في أبناء العروبة والإسلام . وما ذلك على الله بعزيز .

ومن مظاهر إحياء السُّنَّة أيضاً توظيف الحديث الشريف ، في ميادين الدراسات العليا . وهذا اقتراح قدمته هدية لجامعة الإمام في المملكة العربية السعودية ، منذ

(١) الحديثان ٢٠٩ و ٢١٠ في سنن ابن ماجه . وانظر المطالب العالية ٣ : ١٢٧ والجامع الصغير ٢ : ٢٧٤ .

سنوات ، لأنها حريصة على كل ما يتعلق بالسُّنَّة النَّبوية الشريفة . ومضمون هذه الهدية ذو شِقَّين :

أولهما : تأليف لجنة علمية ، من متخصصي علمَيِ الحديث واللغة ، لدراسة الأحاديث الصحيحة دراسة دقيقة ، بمتابعة القيمة اللغوية للرواة . وبذلك يميَّز من كان منهم راوياً باللفظ ، أو عربياً فصيحاً أو عالماً لغوياً ، فتكون النصوص التي أسانيدها عربية خالصة ، يصح الاستشهاد بها في الدراسات اللغوية المختلفة . ثم تجمع تلك الأحاديث في منشورات خاصة ، تحت عنوان : « الشواهد اللغوية من الأحاديث النبوية » . وبذلك توضع مواد علمية ميسرة ، لكل دارس وباحث ومحقق ، طالما بذلوا الأيام والشهور ، ليختاروا عبارة شريفة ، تؤنس في مجال الاستدلال .

والثاني : توجيه الدراسات العليا ، في الكليات الأدبية واللغوية ، إلى اختيار موضوعات للبحث ، تعتمد تلك المنشورات المذكورة ، لنيل الدرجات العلمية في علوم العربية وآدابها . فقد طال أمد الانصراف عن النصوص النبوية ، تذرعاً بمقولات بعض المخطئين في حق الحديث الشريف ، وآن الأوان لتوظيف تلك النصوص ، في أبحاث متعددة الجوانب ، من مثل : التركيب النحوي ، وأساليب الاستفهام والجواب ، والاعتراض والاستئناف ، والشرط والقسم والتوكيد ، والأفعال الناقصة ، وتصريف الأسماء والأفعال ، وتردد المعاني الوظيفية بين الأفعال وبين الأسماء ، ومظاهر الإعلال والإبدال والإدغام ، والتثنية والجمع ، ومعاني الأدوات وصيغها وعملها ، ومقاصد زيادة حروف المباني والمعاني ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتقدير ...

وقد شرعتُ في تنفيذ الشِّق الثاني ، منذ بضع عشرة سنة ، فأشرفت على موضوعات وأبحاث مما ذكرت ، وتكلمت عن ذلك غير مرة ، وكان مما نشرت موضوع تحت عنوان « افتحوا الأبواب لأفصح من نطق بالضاد » . على أني لمست من هذه التجربة أن العقبة العسيرة ، في طريق الباحث ، هي التقويم اللغوي لرواة

الأحاديث . فليس من اليسير عليه مثل هذا الحكم . ولذلك ناشدت بهديتي المذكورة قبلُ علماءَ الحديث واللغة أن يتعاونوا ، لتعبيد السبيل أمام المخلصين لخدمة السُّنة المباركة ، في هذا المجال .

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين .

٣

العربية بين التعليم
وتكوين المهارة اللغوية*

في المأثور من بليغ البيان : « كادَ الفَقرُ أن يَكُونَ كُفراً » . وهو حديث شريف ،[١] وينسب إلى الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يدل على حقيقة أبدية تلمسها في كل زمان ومكان . فالذين تحيط بهم الحاجات المادية ، ويقعون في حبال الضرورات المتتابعة ، دون رصيد مالي يسد الرمق ويدفع البلاء ، تراهم أحياناً وقد ضعفت نفوسهم عن مقاومة الضغوط القاهرة ، يستسلمون للضرورة وينسون القيم والمثل ، وينقادون للحاجات الآنية في غياب ما رسخ لديهم من الإيمان ، ويكون لهم أعمال بعيدة جداً عما يعتقدون ويلتزمون في الحياة .

فالفقر يعيش في دائرة قريبة من ميادين الكفر ، يطلُّ عليه ويوشك أن يشاركه منازعه وأشكاله ومصيره . هذا شأن الفقر المادي لأنه يضعف القدرات الروحية ويحجب سلطة الفكر السليم عن التحكم في السلوك والوسائل والنزعات .

وإذا صح هذا ـ وهو صحيح ـ فإن الجهل هو أقرب من الفقر إلى الكفر ، إن لم يكن الكفر عينه . ذلك أن الفقر المادي يحجب سلطة العقل فيدنو بصاحبه من دوائر الظلم والبغي والعدوان ، في حين أن الفقر الروحي ـ وهو الجهل ـ تعطيل لتلك

---

* نشر في العدد الأول من مجلة الجامعة الإسلامية في لندن سنة ١٤١٤ هـ .

(١) الجامع الصغير ٢ : ١٤٨ . وانظر شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ١٩ : ٢٢٧ .

السلطة ونسيان كامل لما تحمله من قدرة على وضوح الرؤية ، لاختيار العمل الصالح والفكر السليم والشعور النبيل .

ولذا كان القرآن الكريم كثيراً ما يقرن الجهل بالكفر ، ويعبر عن الكافرين بأنهم « قوم يجهلون » ، حتى أصبحت الجاهلية علَماً على فساد العقيدة ، ورمزاً لعصور الوثنية والشرك والكفران . هذا مع أن ذكر الفقر فيه بعيد عن تلك المهاوي ، وقد يحمل في جنباته بعض الصفاء وألوان الإيمان والصلاح .

كذلك كان شأن الجهل في ميدان العقيدة والعبادة والسلوك . أما حكمه في ميدان اللغة ، لغة الأمة التي يعيش فيها الإنسان ، فجحود وعقوق للوطن والعشيرة والرعاية والأمان . فالذي يجهل اللغة السليمة في قومه ، ويتداول ما تيسَّر له من الخلائط التعبيرية ، يعيش في عزلة وانكماش ، ويتنكر للجميل الذي أولاه إياه وطنه وقومه ، وينمي مظاهر الانتماء إلى الأمم المخالفة أو المعادية . وهذا ما يحملنا على التفكير الجاد في أمور اللغات ، وتيسير تعلمها وجعلها مهارات جاهزة للعمل والتداول والإبداع .

ولأن اللغة العربية ارتبطت بالدين الإسلامي ارتباطاً مصيرياً ، وصارت ملازمةً لقرآنه الكريم والمأثور من السُّنة الشريفة وأقوال الصحابة الكرام ، والوسيلةَ الأولى لفهم تاريخ الإسلام وفقهه وعلومه ، فإننا نقف أمامها الآن لنرى واقعها في حياة أصحابها ومحبيها ، ونتخذَها نموذجاً لما تعيش فيه لغات العالم الإسلامي ، من توزع بين التعليم والصيرورة مهارة للأداء والإنجاز .

أهداف تعليم لغة الأمة :

تتفق آراء المربين والمعلمين على أن الأهداف المشتركة ، لتعليم اللغة القومية ، تنحصر في تكوين القدرات التالية :

١ ـ التعبير الكلامي السليم : وهذا يعني أن يتقن المواطن لغة بلاده ، كما استقرت

في تاريخ القوم وألسنتهم ، وصارت قاسماً مشتركاً يوحد بينهم ، وييسر التواصل والتعاون والعمل الكريم .

٢ ـ القراءة المتقنة : والمراد بها الأداء اللفظي لما كُتب ، بأمانة ودقة في الصوت والصيغة ، والإيقاع والنبر والتنغيم ، والوصل والوقف .

٣ ـ الفهم الكامل : ونعني به أن يصبح لدى المتعلم قدرة كافية ، لاستيعاب ما يسمع أو يقرأ في حياته اليومية ، وفي دراسته ومطالعته وثقافته .

٤ ـ الكتابة الصحيحة : وهي مهارة فكرية يدوية جاهزة ، لنقل ما في العقل والنفس ، من معلومات ومشاعر وتصورات وآمال وعواطف وخيال .

٥ ـ الإنتاج الأدبي : ونقصد التعبير الفني باللغة ، عما يجيش في النفس من تجارب إنسانية ، بأساليب موحية فاعلة ، من الشعر والقصص والمسرحيات والخطابة والرسائل ، للإمتاع والسمو بالذوق والإحساس والخيال .

هذه أهداف عامة يلتقي فيها جميع المواطنين ، دون تخصيص أو تمييز . ثم يليها عنصران آخران ، ينفرد بها المتخصصون في علوم اللغة ، وهما :

٦ ـ التعليم الدقيق : أي نقل الخبرات اللغوية والعلوم المكوّنة لها ، إلى التلاميذ والطلاب والدارسين ، لاستمرار الجانب العلمي إزاء الجانب العملي .

٧ ـ البحث العلمي : والمراد به تكوين القدرات والخبرات والمعارف التي تهيئ للإنسان ممارسة البحث في علوم اللغة ، والإنتاج العلمي في تلك الميادين ، لاستمرار التجدد بها ، ومواكبة التطور العلمي والحياة النامية ، وتزويد الأمة والعالَم بما تفتحه أبواب اللغة ، من صفحات لم يتبينها الأسلاف .

الواقع اللغوي للعربية :

تلك هي الأهداف التي يستضيء بها المعلمون والمدرسون والأساتذة ، حين يمارسون مهنة التعليم لكل لغة . وكذلك شأن العاملين في حقل لغة القرآن الكريم ، ولغة شريعة الإسلام وفقهه وعلومه وآدابه وأحكامه . فهل وجدت لها تلك الأهدافُ سبيلاً إلى التحقق والحضور في حياة العرب خاصة ، ومن يحب العربية عامة ؟

إنَّ الناظر في واقع الاستخدام ، لهذه اللغة الكريمة بين أبنائها ، يجد قليلاً من مظاهر الحضور العملي ، وبعداً كبيراً بين ما يجب وما يكون . فالأطفال والشباب والشيوخ يتداولون بينهم لهجات عامية ، هي مزيج من الأصول العربية المشوهة والغرسات المحلية والوافدة ، لا تمثل شيئاً من آمال التربية اللغوية في الحياة .

بل إن ما يسجل في وسائل الإعلام والنتاج الفني أو العلمي ، بعد تعلّم العربية عشرين سنة ، ودراستها خمسَ عشْرةَ قد يكون فيها تخصص وانصراف كامل ، لترى فيه كثيراً من الركاكة والفساد ، في الصيغ والتركيب والرسم والدلالة والمقاصد . ولا أغالي إذا قلت ، بعد ما شهدته في مختلف البلاد العربية من جامعات ومعاهد ومؤسسات تعليمية : إن الرسائل العلمية التي تنتجها أيدي المتخصصين في علوم العربية ، وعلم النحو خاصة ، تنتشر فيها صور اللحن والإحالة في التعبير ، وقل أن تجد ما صفا وخلا وكان معافى من البلاء .

والقراءة في بلاد العرب ـ شأنها في سائر العالم ـ يغلب عليها اللون الصامت ، تضيع في غياهبه معالم الصواب والخطأ . غير أنك إذا رغبت إلى عربي الجهرَ بما يقرأ لمست ما يتعثر فيه اللسان ، وما يحيله عن لفظه ، وما تظهر فيه الكلمات والتراكيب من صور المسخ والتشويه والإفساد . بل كثيراً ما يتهرب القارئ من أعباء الفصحى ، ليصب العبارات بثوب عامي هجين ، يُضيع عليك ما كنت تريد من الاختبار . وهذا الداء ليس قاصراً على أنصاف المثقفين ، بل هو ظاهر في صفوف العلماء أيضاً وغالبية المدرسين وأساتذة الجامعات .

قد يقال : الغاية من القراءة هي الفهم للمعارف والمقاصد والمضامين ، وحسب الإنسان أن يقرأ كما تيسر ، إذا كان يدرك تلك الغاية . ونحن نرى العوام يقرؤون الصحف والمجلات ، ويتابعون ما فيها بوعي وإدراك . والجواب : أن هذه مغالطة مكشوفة . وإلاّ فاطلب من مجموعة تلاميذ أن يقرأ كل منهم فِقرة معينة ، بأسلوبه الذي يألفه ، ثم حاول أن تقارن ما استوعبوه من ذلك . ولسوف ترى أعاجيب من الخلاف والتناقض والإحالة ، مصدرها صور الخلاف والتشويه في القراءة ، لا القدرات العقلية والخبرات المعرفية فحسب . وكذلك شأن ما يقرؤه العوام من وعي وإدراك .

فلا عجب ، بعد هذا ، أن يصدمك واقع الممارسة اللغوية في بلاد العرب . وهو ـ بلا شك ـ صورة مصغرة من حياة لغات الشعوب الإسلامية في كل مكان . إنه مصير واحد يعيش فيه المسلمون مع لغاتهم ، كما يعيشون مع ألوان البعد عن شريعة دينهم وآدابه وعباداته ومقاصده ، على الرغم من استمرار تعليم الدين الإسلامي في مراحل الدراسة كلها . إنه الوادي السحيق يفصل بين غايات التعليم والممارسات العملية ، في جميع مظاهر الحياة .

عوامل الضعف اللغوي :

أما مصدر هذا الانحدار ، في الممارسات اللغوية ، فيكمن في الرجوع إلى أهداف تعليم اللغة ، والسؤال عن مدى تبنّيها لدى المكلفين بها ، ووضعها نصب أعينهم فيما يقولون ويقرؤون ويكتبون ، لتنمو في الناشئة مهارة لغوية سوية .

فالطفل يتلقى لغته مِن أهله ومَن حوله ، يمتص ألوان اللفظ والصياغة والتعبير ، ليرددها ويصوغ على منوالها ، ويبتكر صوراً جديدة تنقل ما لديه من التجارب والمقاصد . ثم يبلغ مراحل الحبو والمشي ، وينتقل بين الأوساط ليسمع صوت المذياع والتلفاز والجيران ، ويدخل المدرسة والجامعة ، ويقرأ الكتب والصحف والمجلات والإعلانات والنشرات ، ويحضر مجالس الفكر والسياسة والندوات والمؤتمرات

والاحتفالات ، فيتلقف زاده اللغوي من أفواه هؤلاء وهؤلاء ، ليختزنه في وعيه ويبني عليه ما يعنُّ له بعد .

ولو قُدِّر لك أن ترصد هذا الكم الهائل من الكلام ، وتقف عند الزاد اليومي منه ، لتحصي نسبة الفصيح منه إلى العامي ، لتبين لك أنها لا تبلغ عُشر المِعشار . فالإنسان العربي يتلقى القليل القليل من فصيح الكلام ، ممزوجاً بكميات طاغية من العامية والأعجمية ، تفسد ما كان سليماً معافى ، وتُغلِّب نماذجَ الرّكة والانحراف لديه ، فيستجيب لها ويتداولها مع من حوله . تلك هي المهارة اللغوية التي ينشأ عليها ويمارسها في جميع شؤون حياته .

أضف إلى هذه المصادر الشائهة من الزاد ما يتردد ، في وسائل الإعلام وقاعات التدريس وبين الناس ، من وصمِ العربية بالعسر والعقم ، واتهامِ علومها بالتعقيد والانتشار ، وبذرِ الانبهار باللغات الأوربية المؤنقة ، وتكريسِ الاهتمام بها لأنها مصدر العلوم والحضارة ، وتحكمِ الأوصياء على العربية فيما يجوز ولا يجوز ، وإسباغِ الهيبة والترهيب على ما يصدر من التراث ، والدعواتِ المشبوهة إلى الانعتاق من حظيرة العربية إلى رحاب العامية السمحة واللغات الأوربية المستبدة . فإذا بك ترى المُواطن العربي مشدوداً من جميع زواياه إلى التَّنكر لعروبة الكلام ، مهيأ النفس والروح لامتصاص المؤثرات الطاغية ، وتهديم ما يتناثر بين ذلك من الفصيح الكريم .

إن المواطن العربي يعيش في مستويات لغوية متباينة ، لا نقول : هي ثنائية بين العامية والفصحى . بل هي سداسية أو سباعية أو عشارية ، تبعاً للبيئات التي تتداوله . فالبيت له لهجته النابعة من حيِّه ، والشارع أخلاط من اللهجات المتداخلة من الأحياء المختلفة ، والمدرسة معرض للهجات أُخرى وافدة من الأقطار العربية والبلاد الأجنبية ، لأن كل مدرس أو إداري يتحدث بلهجة بلده ممزوجة بلُهيجة بيئته الخاصة ...

وهذا كله ينصب في ذاكرة الطالب المسكين ، وعليه أن يستوعبه ويجاريه في الحوار والمقابلات والاختبارات الشفوية . ولا ننسى الجامعات والمعاهد التي تشارك في أُطرها جنسيات مختلفة وخريجون في بلاد شرقية أو غربية ، غمرتهم العجمة واللهجات المحلية . وما هذا من المبالغة في شيء .

وهكذا تجد المهارات اللغوية قد شُدت إلى منازع الهجنة والارتكاس ، واستسلمت لضغوط العوامل الهدامة من كل صوب ، فكانت صوراً شُوهاً من خلائط الكلام والقراءة والكتابة والأفهام ، وتعذر على المصلحين تشخيص الداء ، وتحضير الدواء وإدراك الشفاء .

مساعي الإصلاح :

لقد تعالت الأصوات ، منذ الاستقلال الوهمي في بلاد العرب ، بالتنديد والنذير والدعوة إلى إصلاح الواقع اللغوي ، فكانت ندوات ومؤتمرات في المؤسسات العلمية والثقافية ، ومناقشات واقتراحات ومقالات في صفحات الجرائد والمجلات ، وتوصيات ومقررات في مختلف الأقطار العربية ، وكان لي جهد متواضع من المشاركة[1] ، دون أن نلمس صدى إيجابياً طفيفاً يبشر بالانعطاف نحو الصحة والسلامة من العضال .

والسّر في إخفاق هذه المساعي أن الغاية منها كانت تظاهرات إعلامية ، للدعاية واستعراض العضلات والتباري في التعالم والرشاد ، وإمداد الصحف والمجلات والإذاعة والتلفاز بما يملأ الأحياز اللامعة . فقد شُغل المتبارون بالحديثِ عن خصائص العربية وسيادتها لجميع اللغات ، والتذمرِ من شيوعة العامية وتهافت الأساليب والدلالات ، وعرضٍ للمثبطات والمعرقلات لسير الفصحى ، والاستكثارِ من التوجيهات والتوصيات والمقررات المستمدة من تجارب الشرق والغرب ، بحماسة بالغة وأسلوب خطابي منفعل غير

(١) المجلة العربية ص ٥٠ ـ ٥٣ و ٤٩ ـ ٥٢ و ٢٣ ـ ٢٥ من أعداد جمادى الآخرة لسنة ١٣٩٨ وما بعدها ، وصحيفة المدينة المنورة ص ٤ من العدد ٨٢٦٦ و ص ٢ من العدد ٨٢٧٣ .

فاعل ، وتعبير تتخلله العامية المحلية مع كثير من الألفاظ الأعجمية والمصطلحات الأوربية . ولذلك ضاعت الجهود في موجات الأثير وصفحات المناشير ، ولم يكن لها صدى ظاهر أو خفي على التداول اللغوي ، ولبثَ العربي في ميادين التوزع المعروف .

إنه المُناخ اللغوي الموبوء ، يتنفس فيه العربي عبيراً مشحوناً بالهوامّ والجراثيم ، فتنمو لديه قدرات مطعَّمة بالمثبِّطاتِ لتكوين المهارة السليمة ، والمعرقلاتِ لكل تطلُّع إلى العلاج . ولهذا نرى أحد المدرسين للعربية ، في قطر عربي عريق ، يشكو الطلاب أمرَه إلى الإدارة ، لأنه يلقي المعارف بلغة لا يفهمونها . وما شكواهم إلا من اللغة الفصحى الغريبة لديهم ، لأن سائر المدرسين يلقون المعلومات بلغاتهم المحلية العامية ، وقد أَلِفَها الطلاب رغم تعددها واختلافاتها وتناقضها ، فكانت الفصحى غريبة لديهم لا يستوعبونها ويتذمرون .

وثمة عالم جامعي مسلم غير عربي ، يتيسر له عام دراسي للتفرغ والبحث العلمي . ولأنه يحب العربية لغة القرآن الكريم ، يختار أن يقضي عامه هذا في البلدان العربية ، ليشافه أصحاب الفصاحة ويتلقى عروبة اللغة ، سائغة خالصة من أدران العجمة واللحن . ولكنه عندما يطوف تلك البلاد : أسواقها وميادينها ومجالسها العلمية والسياسية والأدبية والجامعات والمعاهد ، يرتد في تعاسة وقنوط آسفاً على ما ضيع من الجهود والنفقات ، وما فَقَد من المهارة العربية المتواضعة . والحق أن ما كان يلقاه في وطنه من عربية هو أصلح وأدق مما تداول سمعَه من رَطانات أبناء العرب .

لقد اعتاد المسلمون أن يداووا أمراضهم الجسمية والنفسية والاجتماعية والسياسية بما يجود عليهم به الغرب والشرق من أدوية معبأة ومغلفة بالبريق والفخامة ، وأجهزة كاملة مصقولة مهيأة للعمل ، مع الدليل المسجل والخبير الوافد للإشراف والتدريب . وقد حاول العرب ذلك أيضاً في معالجة الاضطراب اللغوي ، فاستمدوا أكثر وصَفاتهم من سجلات أجنبية ، ونصائح أوربية وأمريكية ، ناسين الفوارق الطبيعية والواقعية

للغات ، وأن العدوَّ مهما أخلص لعدوه فإنه لا ينفعه إن لم يضره ، والهمومَ العربية الراهنة لا يسعفها إلاّ الجهد العربي المخلص الواعي لما يريد وما يستطيع .

تكوين المهارات اللغوية :

يستطيع الجهد الأصيل المخلص الواعي أن يسهم في هذا الميدان ، إذا رجع إلى تشخيص الداء والبحث عن الدواء في الواقع العربي ، ومن خلال القدرات التي تمثل المهارة اللغوية . ولقد عرضنا من قبلُ هذه القدرات ، وبيَّنّا ما يراد منها في المواطنين عامة ، والمهيَّئين لتدريس العربية والبحث في علومها خاصة . فمن هنا تكون نقطة الانطلاق ، ويكون بدء العمل لرعاية المهارة اللغوية وتوجيهها نحو الكفاية والصلاح .

فلهذه القدرات طبيعة حسية حركية ، وأُخرى عقلية عصبية . والأسلوب الناجح في تكوينها ورعايتها يجب أن يلحظ هذا الجانب ويسير في هديه ، ليستطيع أن يقدم النمو السليم والعلاج القويم . وأرى أن ذلك يكون فيما يلي :

١ ـ المُناخ اللغوي الفصيح : فالمعروف لدى المربِّين أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، لا تتجلى في الفرد إلاّ إذا كان يعايش مجموعة من الناس متجانسة التعبير والأداء اللغوي . وهذا يعني أن تكوين القدرات التعبيرية وتوجيهها نحو الكفاية والمهارة يقتضيان بيئة ، تتقارب فيها صور الأصوات والصيغ والتراكيب ، إن لم تتوحد .

فالطفل يتلقى تلك الصور بالسمع والبصر ، إدراكاً ووعياً وتسجيلاً وانفعالاً ، ويرددها مراراً وتكراراً بلسانه وخياله وتفكيره ، ثم يصوغ على غرارها أشكالاً تقليدية أو مبتكرة ، تمثل إدراك القواعد والضوابط التي تنتظمها وتوجهها . إنه كِبتارٌ « كمبيوتر » حيّ يتلقى المعلومات ، مع التعابير الحركية في الوجه واللسان ، وما يرافقها من إيحاءات نفسية واجتماعية ظاهرة أو خفية . ومن ثَمَّ يجد متعة في تقليد ذلك ونسج ما يشبهه من الكلام ، بدقة وكفاية ونجاح .

وهذا يُبنى ، من الناحية الإنسانية ، على إقامة صلات حسية وإدراكية وانفعالية وعقلية ، في مسارات معقدة من الأعضاء والحواس ومكامن الذاكرة والأداء اللغوي . وهذه الصلات منها ما يكون بين البصر والسمع والإدراك والذاكرة ، وبين الذاكرة والإرادة والجهاز الصوتي والحركي عامة .

فإن كان المقصَد للتكلم سارت العملية في خط الحركات الصوتية مع ألوان من التعبير في الوجه والرأس وبعض الأعضاء . وإن كان للكتابة سارت في طريق آخر لتوجه اليد وتملي عليها الأداء . وإن كان للإبداع الفني سارت في سبيل فكري خيالي انفعالي خالص ، تتردد جيئة وذهاباً حتى تتجاوب التجارب والمقاصد والذوق والحس والخيال والصبوات ، في تعاون وتفاعل وانسجام .. إنها مسالك مختلفة متشعبة ، ولكنها تصدر عن مركز موحد ضابط منظم ، يقيم بينها التواصل والتبادل والتساوق ، لإنجاز ما يكون من الحوار والنتاج الفكري والأدبي والتعليمي .

ومُهمّة البيئة الصالحة أن ترعى هذه المناحي الإنسانية ، بالمؤثرات الموحدة السليمة ، بعيداً عن التناقض والخلافات واللهجات اللغوية المتباينة ، لترسم لها الشبكةَ الراسخة الجذور . وتدربها على الإنجاز اللغوي القويم . وإنما يكون هذا بالتكرار المبرمج المنظم الموحد ، بين جميع عناصر المحيط الاجتماعي ، كما كان يفعل أجدادنا في الجاهلية والإسلام ، حين يحيطون الرضيع والطفل والناشئ والشاب بالمُناخ العربي الفصيح بينهم ، أو في مضارب البادية بين القبائل البعيدة من مسارب العجمة والهجنة والارتكاس .

٢ ـ **القدوة الصالحة** : ويتفرع عن المُناخ السليم إعداد نماذج تربوية تعليمية ، تمثل اللغة الفصيحة في قاعات المدارس والمعاهد والجامعات ، لتنقلَ إلى الطلاب الأساليب القويمة ، ببيان ووضوح وسلاسة ، وبساطة تناسب المستويات الدراسية ، وتتابعَ ذلك في ألسنة الناشئة وأقلامهم واستجاباتهم ونتاجهم الفكري والفني .

وبذلك يكون المعلمون والمدرسون رعاة لما غرسته الأسرة والبيئة من قبل ، وعامل تنمية وتطوير يُمِدّ الطلاب بالنسغ الحي ، من التعبير والتفكير والتصوير ، في مختلِف المقررات التعليمية والتربوية ، ويتعاونون جميعاً في سبيل موحدة مشتركة واضحة المعالم ، ولا يبقى العبء على معلم النحو ، ليبني ركائز آنية تطيح بها عواصف دائمة من سائر الجهات العاملة في نطاق التعليم .

ولا بد أن يسهم في هذا أيضاً رجال الإدارة والتوجيه وكل من له صلة بالتعليم ، حتى ترسخ الغرَسات الجديدة الطرية وتجد لها جذوراً تؤتي النماء والعطاء . ثم يأتي عمل وسائل الإعلام ، من صحف ومجلات ونشرات وإعلانات وأحاديث وندوات ومؤتمرات ومسرحيات وأغان .. لتزودَ الجماهير بما يصقلُ مهاراتها اللغوية ، ويسددُها إلى الهدف الذي تحدده السياسة التربوية ، وتشبعَها بالاستخدام اللغوي الرشيق الخفيف الصالح للمواقف الحيوية ، وتكونَ رافداً متجدداً لصنيع المربِّين والموجِّهين .

وإذا كان المُناخ البيئي متعذراً تحقيقه الآن ، لتشعب مصادره وخروجه على الانضباط وفقره اللغوي ، فإن القدوة التعليمية بين أيدينا ، نستطيع إعدادها وضبطها وتوجيهها دائماً نحو الهدف المنشود . وإلاّ فما هي غاية المعاهد التربوية لإعداد المعلمين والمدرسين والموجهين في الوطن العربي ؟ أإفراز دفعات من الناقلين للمعلومات بأي لغة أو لهجة كانت ؟ أم المفاخرة بالأعداد الغفيرة من حاملي الثقافة المجزأة المتباينة البعيدة عن التكوين العربي ؟

وكذلك شأن وسائل الإعلام . فهي مِطواع لأولي الأمر ، في اختيار رجالاتها ، وتوجيه عملها بالتسديد والرقابة والإصلاح . وإلاّ فما مهمة هذه النشاطات الوفيرة التي تدخل مخادع الناس وترافقهم في كل زمان ومكان ؟ أترويج أهداف السلطات وإشاعة الهُجنة اللغوية بالترويح والمتعة والترفيه ؟

إن مهمة هؤلاء وهؤلاء هي خدمة السياسة التعليمية للأمة ، وإمدادها بعناصر

التنمية ، وتتويجها بالصالح من الأساليب والمواقف والاتجاهات والمهارات . فلا بد أن تكون لغة الأمة إحدى غاياتها ، تتابع صقلها وتغذيتها بالزاد الآنيّ والجهد والإخلاص . ولذا كان من الضروري اختيار العاملين في هذين الميدانين ، وإعدادهم إعداداً تربوياً ولغوياً يكون في مستوى المُهمّة المنوطة بهم ، ويحفظ للأمة صفاءها اللغوي ودفعه نحو الاطّراد والنّماء ، وإلاّ كانوا أداة هدم وتجهيل وبلبلة للأساليب الكلامية ومستويات الأداء التعبيري ، كما هي الحال في جميع بلاد العرب الآن .

لقد بينتُ من قبلُ أن نسبة السلامة في الزاد اللغوي اليومي ضئيلة جداً ، وهي جُرعات خفيفة نادرة تغمرها العامية والهجنة بأمواجها المستبدة الطاغية . ولنعلم هنا أن رحاب التعليم والإعلام لها النصيب الأوفى من هذا الطغيان وذلك الاستبداد . والعذر للقائمين على ذلك أن مخاطبة الأطفال والجماهير يجب أن تكون بما يحسنونه من التعبير ويفهمون ، وأن اصطناع الفصيح من الأداء يفوّت على المتلقّين فرص الاستفادة ، ويشغلهم بغرابة اللفظ وعسر العبارة وتعقيد الكلام .

كأنك تظنني أغالي وأبالغ في وصف الحالة الراهنة . ولكن ما حضرتُه وشاهدتُه أبلغ من هذا وأفدح . لقد كانت وما تزال الجلسات العلمية في الجامعات العربية ، والمحاضرات الأدبية والنحوية والبلاغية والنقدية واللغوية ، بل الجلسات التحكيمية لرسائل الشهادات العليا ، في الأدب واللغة والنقد والنحو ، يغمرها الحديث بالعامية المحلية والعبارات المبتورة المزجاة . ولقد شاركت في دورات لتوجيه بعض المعلمين والمدرسين ، أو تعليم غير العرب لغتَنا الحبيب ، فكانت فيها لغة التوجيه والحوار يغلب عليها طابع الهجنة والعامية .

وعندما رغبت إلى هؤلاء الطلاب أن يكون حوارهم معي بالفصيح من الكلام ، احتجوا بأن كل من تداولهم من الموجهين كان يصطنع لهجته المحلية ، ويقبل منهم ما عنَّ من الأداء دون معيار أو ترشيد . بل كان اعتراضهم أدل على ما زعمت من

الإجحاف والتهديم . فهم يعتقدون ، كما صرحوا ، أن التدريس والحوار بالعامية أنجع في التعليم والتوجيه ، وأحفظ للفصحى من الابتذال والتخريب .

فالطلاب والجماهير لا يدركون مقاصد الفصيح ، وهم أسرع تلقياً وفهماً للّهجات الدارجة ، وأكثر تجاوباً وانفعالاً . ثم إن الحديث معهم بالفصيح يعرِّض المشرف إلى الخطأ أو اللحن أحياناً ، فيسيء إلى قدسية اللغة ويعلم الآخرين ما لا يجوز من الانحرافات في حياة الفصحى . وحريّ بهم ، كما قالوا ، أن يحفظوا لهذه اللغة حرمتها ويصونوها من الابتذال .

والعجيب حقاً اطمئنانهم إلى أن التعليم والإعلام ، بلهجات مختلفة متباينة تبلغ العشرات أحياناً ، أفضل وأنجع من اللغة الواحدة التي تجمع الشمل وتزيل الحواجز السياسية المفروضة وتصقل المواهب الفنية الواعدة . وهم في اطمئنانهم هذا يتناسون أن الطفل الصغير يشهد تمثيلية ، أو يسمع قصة ، تؤدَّى بالفصيح من الحوار والوصف ، فيدرك مقاصدها ، ويردد ما ورد فيها من العبارات ، بل قد يحفظها كلها باعتداد وفخر واعتزاز . إنه الكِبتار الحي ، يجهلون قدراته ويغمطونه حقَّه ، ويأخذون بيده إلى الارتكاس ومهاوي الأداء المَهين .

٣ ـ توجيهَ المصادر المقروءة : تشغل المطالعة حيِّزاً تعليمياً وثقافياً واسعاً جداً ، تزداد رقعته اتِّساعاً مع انتقال الإنسان من الطفولة إلى المراهقة فالشباب فالكهولة ... وهذا يعني أن اللغة المقروءة تزودنا بقدر كبير من التعبير ، وترافقنا في البيت والسيارة والمقهى والمتنزه والمكتبة والمكتب والفندق ، وتتابع التدخل في أساليب القول دون انقطاع .

فالكتاب المدرسي أو الجامعي رفيق ملازم ، تردفه المصادر العلمية والفنية والثقافية التي تقدم الأُطر الموسعة للمعرفة ، وتلاحق منجزات البحث والإبداع .

والغالب على هذه المصادر أنها تخرج إلى الأيدي ، من الزاوية اللغوية في بلاد العرب ، على غير توجيه أو رقابة ، فيكون فيها للقارئ رافد تعبيري مضطرب مدخول .

فالكتاب المدرسي مثلاً موزع بين لغة النحاة وتعبير الفقهاء وصياغات الترجمة . وفي كل من ذلك صور غير لائقة بالزاد المرغوب فيه .

أما لغة النحاة فعسيرة ، تقوم على الحجاج والجدل والتقعيد ، وتتداخل فيها العبارات ، وتكثر فيها المصطلحات المجردة ، ويحمل القارئ منها ألواناً معقدة من التعبير والتفكير .

وأما صياغة الفقهاء فمختزلة جداً ، قِوامها الأحكام المتلاحقة والعبارات المعقدة والمقاصد البعيدة والإشارات السريعة ، يتعذر على الطفل واليافع أن يخرج منها بالوضوح والصفاء .

وأما كتابات المترجمين فعِمادها نقلُ المعلومات المشتتة من المصادر المختلفة ، بتلفيق للنظريات والمذاهب والاتجاهات ، وتعبيرٌ تُلاكُ فيه الجملة وتلقى بين أقرانها أمشاجاً ، وألفاظٌ يغلب عليها طابع العجمة والهجنة ، ومصطلحاتٌ مستوردة لم تحظ بالجنسية العربية .

وإذا خرجنا من هذه الدوائر الثلاث تَلْقانا الأمالي التي يصطنعها المدرسون أو الطلاب أو مكاتب الإشراف والتوجيه . وهي نماذج من التقطع والفهاهة والطلاسم ، مزخرفة بالخطوط والنجوم والأشكال المخرّبة للأبصار والأذواق .

وبما أن الطالب يلازم هذه المصادر ليل نهار ، ويراجع قراءتها مراراً حتى يتقن حفظها والقدرة على أدائها ، فإن أثرها اللغوي بالغ عميق ، يحمّله ألوان الرَّكة والتوزع ، والغموض والاضطراب . فلا بد أن يعاد النظر في تأليف الكتاب المدرسي ، ليكون نموذجاً صالحاً للتفكير والتعبير . وإذا كان لا بدَّ من الأمالي في بعض المراحل أو المعلومات فلتكن بإشراف أساتذة يحسنون العمل والتعبير والتوجيه .

وعلى كل حال ، فإن المصادر المقروءة يجب أن تراعى فيها الدِّقة في علامات الترقيم ، لأن كل رمز منها هو في الحقيقة جملة لغوية أو أكثر ، تُسبغ على التعبير اللفظي طابع التنظيم والتوضيح والبيان ، وتساعد في تحديد البدء والقطع والوصل والاستطراد ...

ولنقف أمام كتاب النحو الدراسي . فهو ، بالإضافة إلى ماذكرنا ، يحتاج إلى إعادة النظر في المادة التي بين دفتيه . ذلك لأن ما يقرَّر الآن على الطلاب من النحو بعيد عن الحاجات الحيوية ومقتضيات النشاط الإنساني ، تتوالى فيه الأحكام والضوابط والشواهد ، وتكرر في جميع المستويات والاختصاصات ، دون اعتبار للوظائف المتوقعة في الحياة العملية .

ولو نظرنا بعين الاعتبار إلى تلك الوظائف كان علينا أن نقيم حدّاً فاصلاً بين نوعين من النحو : النحو العَمَلي الذي يضم القواعد الأساسية للتعبير ، ويحتاج إليه كل عربي في وظائفه المهنية وشؤون حياته ، والنحو العِلمي الذي هو تاريخ لكثير من صور التعبير ، والخلافات القبلية والمذهبية والفردية ، والتوجيهات التحليلية المُعَدّة للتدريب واختبار العلماء .

أما الأول فهو يسير جداً ومحدود بقواعد معدودة ، يوزع بدقة على مراحل الدراسة ، مع اهتمام بالتدريب العملي والتعبير السليم ، فيكون وسيلة لتقويم اللسان وتنمية البيان ، مع البعد عن التفصيلات الغابرة والتوجيهات المصطنعة .

وأما الثاني فهو ميدان لاستيعاب لهجات القبائل واختلاف النحاة ومسائل التمرين ، ويُحصر مداه في أقسام اللغة العربية والدراسات العليا لعلوم هذه اللغة ، وتبقى سائر المراحل المدرسية والجامعية بعيدة عنه ، لأنه يعرقل خطواتها ويثبط نشاطها ولا يكون له في أبنائها إلاّ الأثر السلبي .

ولن نعرض هنا لمضمون كتب غير النحو ، ولمصادر الثقافة والمطالعة العامة ، لأنه يخرج بنا عن موضوعنا اللغوي . وحسبنا أن نقف منه الموقف التعبيري الذي يساهم ، في تكوين الزاد التعبيري لجميع المواطنين . ونعني أسلوب المطالعة والاستفادة ، وهو القراءة الصامتة .

فقد اعتاد المعلمون والمدرسون أن يوجهوا الطلاب إلى القراءة الصامتة ، لتكوين المهارة فيها ، وتزويد القارئ بأكبر قدر من المعلومات ، في أسرع وقت ، بعيداً عن تعطيل أعمال الآخرين . واكتفوا في ذلك أن يقرأ الطالب بعينيه وإدراكه ، دون أن يوجهوه إلى أسلوب التلقي الصحيح . فهو يقرأ كما عنَّ له ، ولا يتنبه إلى الدقة في **الأصوات والصيغ والتراكيب ودلائل الإعراب ، أو بتعبير أدق ، يتلقى المعلومات** بأسلوب عامي شائه ، تضيع في متاهاته المهارة اللغوية ، ليقوم مقامها ترسيخ الجهل باللغة والفصاحة والبيان .

وقلما خطر لواحد من المربين أن يلحظ هذا الجانب ويعطيه حقه من التوجيه والتسديد . حتى إن مؤتمراً عقد منذ سنوات ، لتطوير مناهج تعليم القراءة في الوطن **العربي ، أغفل بحث هذه المعضلة ، على الرغم من أهميتها ، وكثرة التوصيات والقرارات والمرافعات التي ملأ بعضها مجلداً برمته ، وشغل جميع رجالات التربية والتعليم في دنيا العرب .**[(١)]

الحق أن هذه القراءة هي الأسلوب الغالب في تلقي ما كتب في جميع المصادر . ولذلك تغلب عاداته التعبيرية كل أسلوب ومنهج ، فكان من حقه أن يعطى أهمية بالغة تناسب مداه وآثاره . ولو روعي ذلك في السنوات الدراسية الأولى ، وفرض على التلميذ أن تكون قراءته الصامتة فصيحة ، تتقن الصورة الصوتية والنحوية بدقة وإحكام ، لرسخت أساليب الأداء السليمة في الذاكرة مع المعلومات ، وصارت السبيل الوحيد للتعبير اللغوي .

(١) تطوير مناهج تعليم القراءة ص ٣٦٩ ـ ٣٧٤ .

بل إني لأزعم أن القراءة الصامتة لا تقتصر على حاسة البصر ، وقدرات الإدراك والذاكرة ، وإنما يشارك فيها الجهاز الصوتي كله بذبذبات خفية ، تَنسج أساليب القول ومضامين الكلام . وهذا يعني أن التفكير اللغوي ليس فكراً خالصاً ، بل هو تفاعل عقلي وصوتي ونفسي واجتماعي . ومن ثَمَّ وجب أن تكون هذه القراءة واعية للعناصر اللغوية وعيها للمعلومات والمتعة والخيال .

وفي يقيني أن الوعي الذي ذكرت سيكون له انعكاس إيجابي ، على الأداء اللغوي عامة ومهاراته ، وعلى التفكير أيضاً . ذلك لأن انتقال الخبرة هذه ، كما يقول علماء النفس والتربية ، سيوسع الدائرة التعبيرية في ميدانَي الفكر والحوار ، ويطبع فيهما بصمات الفصاحة والصفاء . بل ربما انتقل ذلك إلى عالم الأحلام ، فصار المرء في أحلام اليقظة والمنام يتداول هذه التجارب الراسخة . وهو منتهى ما يصبو إليه أوصياء اللغة الحبيب .

وإني لأرقبُ نفسي ، وأنا أُملي هذه الأسطر على الكِبتار ، فإذا بي أؤدي الألفاظ والتراكيب ، وهي صامتة خفية ، كما أقرؤها جهراً بكامل صورها الصوتية والإعرابية . **وهذا ما ألاحظه حين أتوقف وأرصد قراءتي الصامتةَ لكل ما كُتب . وما ذلك إلاّ لأن** شيوخي الكرام كانوا ، في الكتاتيب يأخذوننا بالقراءة الفصيحة جاهرين وصامتين . وهذا ما يجهله المربّون المعاصرون ويسقطونه من معادلاتهم النظرية المتعجلة .

ثم لا ننس ما تقتضيه القراءة المعبِّرة ، من مراعاة للتنغيم والنبر ولهجات الأمر والنهي والخبر والاستفهام والتعجب ... ومراعاة للوقَفات المناسبة لمواقع الكلام ، من استئناف واعتراض وعطف وانتهاء ... ومراعاة لإعطاء كل فن كتابي حقه من التعبير . فثمة قراءات متباينة تختص كل منها بالشعر أو النثر العلمي أو القصة أو المسرحية أو الخطبة ... وفي كل فن ألوان من الموضوعات يناسبها أساليب خاصة في القراءة ، كالغزل والوصف والرثاء والتهنئة والحماسة والشكوى ...

وهذا كله يجب أن يأخذ حقه في قراءة المعلمين والمدرسين أمام الطلاب ، ليتأثروه فيما يمارسون من القراءات الجهرية أو الصامتة . وهو مفقود فيما تتبعتُ من بلاد العرب ، مما يُفقد المهارة اللغوية كثيراً من حيويتها ، ويضيع على القارئ والسامع المتعة والإدراك لأبعاد المقاصد والظلال . والعجيب حقاً أن تلك الدقائق التعبيرية مراعاةً بطلاقة في الأحاديث العامية ، وكلام الباعة والأطفال والعجائز والمرضى والمجانين . بل إن المربين ليمارسونها في أحاديثهم الخاصة ، ثم يغفلونها في قراءتهم للطلاب .

٤ ـ **الكرامة والمسؤولية** : للعمليات التربوية والتعليمية شروط اجتماعية ونفسية ، تهيئ لها الأثر الطيب والنجاح . والمهارة اللغوية التي يكوِّنها المجتمع وينميها هي إنجاز للتربية والتعليم ، بحاجة إلى بعض تلك الشروط ، ليسير في السبيل الإيجابي القويم . وإلاّ كان المردود العملي ضعيفاً ، إنْ لم يكن سلبياً .

فإتقان المهارة اللغوية له دوافع نفسية ، تُشعِر المرء بالحماسة والانفعال والاهتمام ، فيكون لاستجاباته نتاج عملي محمود ، ويلازمه ذلك ، وإن بعد عن ميدان التلقي والتزويد . وأول ما يمهد السبيل لهذا تحرر الإنسان من الضغوط الاجتماعية المثبطة ، كالقسر والعنف والهوان . فالعلاقة بين الطفل ومربيه تكون منتجة ، إذا قامت على المودة والرحمة والاحترام المتبادل . وبذلك تشعر الأجيال الصاعدة بمكانتها في العملية التربوية ، وتنشط لمتابعتها بالاهتمام وإعطائها أكبر قدر من النجاح .

وبتوسيع هذه الدائرة من التحرر ، لتسود كل العلاقات الاجتماعية بين المواطنين والمسؤولين ، نقدم للنجاح دفعاً ضخماً ، إذ يتمتع العربي بكرامته وعزته ، وينزع من نفسه الشعور بالقماءة والهوان إزاء الأجنبي ، فيتهيأ ليقف معه موقف النظير ، ولا يرى للدول العظمى وحضاراتها أثراً لزعزعة القيم الإنسانية بين جميع البشر .

ولا شك أن للعلاقات الدولية أهمية في هذا الموضوع ، وأن مواقف البلدان العربية

من تلك الدول يغذيه سلباً أو إيجاباً . فعندما يكون التعامل بين الجميع على أساس من التقدير المتبادل والمساواة والاحترام ، ينعكس ذلك على الشعور العربي ثقة بالله أولاً ، ثم اعتداداً بالنفس والقدرات الذاتية ، وحماسة للغة الأمة وقيمها وحضارتها ، وترتفع مرتبة العربية في قلوب أبنائها وغيرهم من الأصدقاء والأعداء .

فالعدالة في الحياة سرّ الكرامة والنشاط والإبداع ، وخير سبيل لحفز الناس على الاستجابة والجد والعطاء . ولم أستخدم هنا لفظ « الديمقراطية » لأنه مصطلح وثني هلامي رجراج ، تراكمت فيه المفاهيم المتناقضة حتى أصبح وكراً لكل عسف وظلم وعدوان ، وشعاراً لاستغلال القيم والمُثُل وكل عزيز .

ومثل هذا الاستقرارِ النفسي يهب العربي إدراكاً واعياً لقيمة لغته ، وأنها مصدر أساسي لوجوده وعزته وكرامته ، فتنحسر من وجدانه تلك الهالات المصطنعة التي أحيطت بها اللغات الحضارية المعاصرة ، وجعلتها مقدسة أو كالمقدسة تطغى على اللغات القومية ، ويُسعى في سبيل إتقانها بكل جهد ورغبة وبذل . بل تنعكس الحال ، فنستعيد ما كان في نفوس قدامى العرب من اعتزاز بالعربية ومفاخرة بها ، وتقديمها على سائر اللغات في الشعور والتداول والحضور . وهذا كفيل بمنح المهارة اللغوية تربة صالحة للغرس والتفتح والعطاء .

يرافق ذلك ترشيد الناس أن للعربية قيمة دينية أيضاً ، تفوق المنزلة القومية . فهي واجب شرعي على كل مسلم ، لأنها لغة القرآن الكريم والسُّنة الشريفة ، ولغة الصحابة الكرام عرباً كانوا أو عجماً ، تداولوها بالفصاحة والإتقان والاعتزاز ، فكان حقاً علينا أن نحييها في قلوبنا وعقولنا وألسنتنا والأقلام والأفهام .

أما أنها لغة القرآن فأمر لا يحتاج إلى دليل ، وحسبنا فيه أن ما يترجم من معانيه إلى لغات أُخرى ليس قرآناً ، مهما بلغ من الدقة والبيان . وأما أنها سُنّة فلأمرين يجتمعان في كلام النَّبي ، عليه السَّلام . وفي تكلمه بها وحدها دائماً قول وعمل ، وأحدهما

كاف لشرعية السُّنّة المؤكّدة . ثم عليها أيضاً حكم الإجماع ، لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا في تكلمهم بها عرباً ومستعربين يضعون للتاريخ إجماعاً بالقول والفعل على وجوبها ، دون خلاف أو جدال . وهذا الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يقول : « إنّا أُمراء الكلام ، وفينا تَنشّبتْ عروقه ، وعلينا تهدّلت غصونه » .[١]

بل لقد صرحوا بذلك عملياً في كثير من المناسبات ، فكان[٢] عمر وابنه عبد الله وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ يضربون أبناءهم على اللحن ، بل إن عمر نفسه لا يجيز الصلاة خلف لَحّان ، وإذا سمع رجلاً يلحن علاه بالدِّرة .[٣] وروي أن ابن عمر جلس قريباً منه رجل تكلّم فلحن ، فأرسل إليه من يقول له : إمّا أن تَنحَّى عنّا ، وإمّا أن نَتَنحَّى عنكَ .[٤]

ثم جاء الفقهاء ليجعلوا علم العربية ، لغة ونحواً وبلاغة ، فرض كفاية على المسلمين ، إذا قام به البعض بما يكفي حاجات الأمة سقط عن الباقين . وذلك لأن العلوم الإسلامية كلها عربية في الأصل ، وفهمها فهماً دقيقاً لا بد له من علوم العربية . فواجب على المسلمين أن يكون فيهم من يقوم بهذه المُهمة ، لمتابعة ما تقتضيه الحياة الإسلامية . نعم هذا على المسلمين عامة . أما المسلمون العرب خاصة فعليهم ماذكرته قبلُ ، خبرةً وإتقاناً وممارسة ، لا فهماً ودراسة فحسب .

هذا لأن فرض الكفاية يجزئ فيه أن يَدرس بعض المسلمين علوم العربية ، ويتقنوا أصولها وفروعها ودقائقها ، دون حاجة أن تكون العربية نفسها قدرة ومهارة لديهم . وهذا نفسه فرض كفاية عليهم في كل لغة لها صلة بالمجتمع الإسلامي ، مع فارق يسير ، هو أن يكون لهذه اللغات الأُخرى من يستطيع استعمالها وفهم ما يريده أصحابها .

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ١٢ .

(٢) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب لأبي بكر الشنتريني ص ٩٤ ـ ٩٥ وأخبار النحويين لأبي طاهر عبد الواحد بن عمر ص ٣٧ .

(٣) تنبيه الألباب ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٤) أخبار النحويين ص ٣٠ .

والأمر في العربية غير ذلك فيما يخص العربي المسلم ، لأنه واجب بالسُّنّة والإجماع ، فليس يكفي منه أن يقوم البعض بالجانب النظري . إنها لدى المسلمين العرب « معروف » يجب الأمر به ، وممارستها عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله ـ تعالى ـ واللحن فيها « منكر » يجب النهي عنه ، كما جاء في صدر الإسلام .

وقد أدرك الصحابة ذلك ، فكانوا يلازمون الفصاحة ، ويحيطونها بالعناية والممارسة . حتى إذا لمحوا بوادر انحراف عنها ، بأثر من الأعاجم ، هبّوا في عهد الخلافة الراشدة يرسمون أصول العلم الذي يحفظ فصاحة البيان ، وينفي أعراض اللحن والعجمة . وقد بارك التابعون هذه الخطوة الطيبة ، حتى قال الإمام الزهري : ما أحدث الناس مروءة أعجب إليَّ من تعلم الفصاحة .

وهذا أعرابي مسلم يدخل سوق إحدى المدن ، ويسمع من الباعة بعض لحن في الكلام ، فيقول لهم بتعجب وإنكار : [١] « سبحانَ اللهِ . تلحنون وتربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح » ! فقد رسخ في الأذهان أن الانحراف اللغوي منكر ، وشيوعة المنكر دون تقويم تهدِّد بسخط الله ـ سبحانه ـ وإنزال العقوبة بالمسلمين . وروي أن أبا زيد الأنصاري غضب لما سمع رجلاً يلحن ، فقال الرجل : أتتهمني في دين الله ؟ فأجابه : أتهمك في لغة رسول الله ، ﷺ . [٢]

وعلى ذلك سار المسلمون العرب فيما بعد ، حتى إن الإمام مالكاً قال : [٣] « من تكلم في مسجدنا بغير العربية أُخرج منه » . ولما عرض ابن تيمية لهذا الموضوع ذكر أن المسلمين العرب يجب عليهم حفظ القانون العربي وإصلاح الألسنة المائلة عنه ، ليكون الخطاب بالعربية لدى الكبار والصغار ، ويظهر شعار الإسلام وأهله . [٤]

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢ : ١٩٥ .

(٢) أخبار النحويين ص ٤٣ .

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ٣٢ : ٢٥٥ .

(٤) نفس المصدر ٣٢ : ٢٥٢ واقتضاء الطريق المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٦ .

فإذا تبين هذا لنا في العصر الحاضر أصبح المسلم العربي مسؤولاً شرعاً عن العربية الفصحى ، وليس له عذر في الاكتفاء بتعلم قواعدها نظرياً فحسب ، كما يجري الآن بشكل عام . ويؤكد هذه المسؤوليةَ الشرعية أن المسلم واجب عليه العمل بما تعلم ، وهو في المراحل المدرسية يتلقى كل ما تحتاجه الفصحى من الضوابط والأساليب والوسائل . ولو مارس العمل بذلك في شؤون حياته العامة والخاصة لأتقن العربية علماً وعملاً . ولكن الذي يجري في صفوف الطلاب أنهم يُتقنون تلك المعارف نظرياً ، ليجتازوا بها الامتحانات ، ولا يبقى منها في نفوسهم إلاّ رواسب الألم والأسف لما بذلوا من جهد ، لا جدوى منه في متطلبات الحياة .

والإجماع قائم على أن العمل بالعلم النافع واجب ، به يكون الأجر والرضى من الله ، تعالى . فعن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه : « اعملوا ما شئتم بعد أن تعلموا . فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا » .[١] وعن الإمام علي ، رضي الله عنه :[٢] « تعلموا العلم تُعرفوا به . واعملوا به تكونوا من أهله » .

وقد وجَّه الخطاب مرة إلى حملة العلم ،[٣] وبيَّن لهم أن العلم المأجور لمن وافق عِلمُه عَملَه ، وأن الذين يخالف عملهم ما تعلموا لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله ، سبحانه . ثم صرح في مناسبة أُخرى بأن العامل بغير علمه كالجاهل ، بل الحُجَّة عليه أعظم والحسرة عليه أدوم .[٤]

وبهذا يكون قد تبدى لنا ما نستطيع أن نزرعه في نفوس المسلمين العرب ، من معاني العزة والكرامة والتفتح على الحياة ، ومشاعر المسؤولية والوفاء لهذه اللغة التي كرمها الله بنزول كتابه العظيم . وهو كفيل بدفع الهمم إلى ممارسة الفصحى خطاباً

(١) سنن الدارمي ١ : ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ٧٠ .
(٣) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٢٦٧ .
(٤) مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء ص ١٧٧ وشرح نهج البلاغة ٢٠ : ٣٢٠ .

وكتابة وفهماً ، والسعي لاكتساب المهارة فيها وتنميتها بالدأب والمحبة والاعتزاز . وهي أصول نفسية خطيرة ، لا بد منها في كل عمل تربوي تعليمي .

العوامل المساعدة :

بالإضافة إلى هذا كله ، نستطيع أن نشجع ما نصبو إليه من الوفاء للعربية ، بإنشاء رقابة مخلصة ، توجه ما يصدر عن مؤسسات الإعلام والتعليم ، وتقوّمه قبل نشره أو بثّه تقويماً لغوياً ، كما نرى من الرقابة السياسية والدينية في بلاد العرب والمسلمين . على أن هذا يجب أن يقوم به علماء واعون لحقائق اللغة ، ومدركون للواقع وما يحسن أن يصير إليه ، لتزول تلك الوصاية الإرهابية التي شاعت منذ عقود واستشرت ، وهي تخطّئ كثيراً من الصواب وتفرض ما لا يحتمله الواقع اللغوي .[١]

ويلتحق بهذا أن يعاد النظر في نشر التراث ، لتزالَ عنه ألوان التضخيم والمعاظلة بالتفنن في التعليقات والأرقام المتداخلة وإسباغ الهيبة والرهبة ، ويصبحَ كما أراد له مؤلّفوه من البساطة واليسر والتحبب إلى الراغبين فيه .[٢]

وإذا كان متعذراً الآن تهيئة المناخ اللغوي الفصيح ، في المجتمع العربي لتتلقى الناشئة منه صفاء الممارسة العملية ، فلا بأس أن يكون البديل هو اللغة الوسطى . ونعني بها ما يتداوله المثقفون من تعبير هو بين الفصحى والعامية ، باستخدام ألفاظ وتراكيب سليمة صحيحة ، مع تسكين أواخر الكلمات . وبذلك تكون نقلة ناجحة ، تؤدي بعدُ إلى مراحل أفضل ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

وقد كان لي مشاركة في ندوة ، لواقع الأداء اللغوي وعلاجه في إحدى الجامعات العربية الإسلامية ، أثرت فيها بعض هذه المسائل والتوجيهات ، فإذا بسعادة عميد

(١) ينظر بحثنا « المعجمية العربية ومشكلة الفصاحة » في مجلة الفكر العربي ٦٠ : ٤٤ ـ ٥٨ وتطور مشكلة الفصاحة والتحليل البلاغي وموسيقى الشعر ص ١٠ ـ ٤٠ .

(٢) تنظر مقالتنا « التراث في خدمة الثقافة » ص ٨ من صحيفة البيان الصادرة بدبي في ١٩٨٨/١٢/١٢ .

الكلية التي أقامت الندوة يواجه الحضور ـ وهم أساتذة ومدرسون ومعيدون وإداريون ـ بعتبه أن يسمع بعضَهم في الكلية يمارس اللهجات الدارجة ، ناسياً أنه في مؤسسة تعليمية عربية مسلمة . ثم يُبلِّغُ الجميع بعد عتبه أنهم ملزمون باللغة الفصحى ، مهما كان المقرر الذي يدرسون ، وبالوسطى في سائر أحاديثهم مع الطلاب والإداريين .

ولو فعل كل مسؤول مثل ذلك لغرسنا في جميع المؤسسات التعليمية والإعلامية والإدارية بؤرة عربية ، تحيي السُّنّة وتقدم للغة القرآن الكريم آية وفاء وإخلاص . وبذلك تَنشر البؤرة أشعتها في أرجاء المجتمع ، ويتيسر للمهارة اللغوية ـ وهي القدرة المُعَدّة لإنجاز جميع ألوان النشاط اللغوي بنجاح وإتقان ـ أن تجد ضالَّتها وتستعيد حيويتها ، وتعيش العربيةُ كريمة عزيزة بين سائر اللغات .

٤

وظيفة القرآن الكريم في الدرس النحوي وتكوين المهارات اللغوية*

١ ـ ما سبب انصراف النحاة عن القرآن الكريم ، عندما قعَّدوا قواعدهم ، إلى الشعر والنثر ؟ وهل يعني هذا أن القرآن الكريم ، بقراءاته ، لا يغطي متطلبات اللغة ؟

الجـواب : أرى في الشطر الأول من السـؤال بعض الجـور على النحـــاة . فهم لم ينصرفوا عن القرآن الكريم في درسهم النحوي . بل لقد كان الداعي إلى هذا الـدرس هو صيانة النص القرآني من اللحن ، ووضع الأصول التي تكفل تحقيق تلك الصيـانـة في كل زمان ومكان . وقد بقي ذلك ديدنهم في المصنفـات التي وصلت إلينـا ، على اختلاف في الاهتمام والتناول .

ولذا ترى في كتاب « الجمل في النحو » للخليل بن أحمد قدراً من الآيـات الكريمة يماثل عـدد الشواهـد الشعريـة ويفضل عـدد الشواهـد النثريـة . وإذا تصفحت كتـاب سيبـويـه تبين لـك أن عـدد الآيـات الكريمـة فيـه قريب من ٥٠٠ . وهـو نصف عـدد شواهـده الشعريـة . ولهـذا يكون الأقرب إلى الصواب أن يصـاغ شطر السؤال كما يلي : ما سبب جمع النحاة بين القرآن الكريم وكلام العرب وأشعارهم عندما قعدوا القواعد ؟

فـإذا كان هـذا هـو السـؤالَ فـإن الجـواب عنـه أن النحـاة كانـوا في أول مسيرتهم يقتصرون على النصـوص القرآنيـة . وقـد روي أن حُرَّ بن عبـد الرحمن النحـوي لـزم أبا الأسود الدؤلي ٤٠ سنة يأخذ عنه إعراب القرآن .

* حوار أجراه معي زميل كريم ، ونشر في العدد ٨٢٦٦ و ٨٢٧٣ من صحيفة المدينة المنورة سنة ١٤١٠ .

إلا أن الممارسة العملية للدرس النحوي كشفت للرُّوّاد أن ميدان البحث يكون محدوداً إذا اقتصر على النماذج الفصحى . فالحياة اللغوية تضج بالمستويات المختلفة المتباينة ، من الفصحى والفصيحة والصحيحة ، ودراسة النحو يجب أن تشمل ذلك كله ، لتكون بحثاً علمياً يخدم القرآن الكريم ولغته في كل مجال .

وفيما قلتُه بعض جواب عن الشطر الثاني من السؤال . فالنص القرآني تناول موضوعاتِ العقيدة والعبادة والتشريع والسلوك ، ونماذجَ من حياة الدنيا والآخرة ، بإجمال أو تفصيل دون قصد إلّهي أن يشمل كل نماذج التعبير . وفي الحياة العامة ، على مدى الزمان والمكان ، وقائع وتجارب وعواطف وخيالات وأوهام وشطحات ونزوات وسقطات ، تقتضي للتعبير عنها أشكالاً من الصيغ والتراكيب ، بعيدةً جداً عن مقاصد القرآن الكريم وأساليبه الرَّبانية المعجزة .

نعم إن القرآن الحبيب تضمن بعض المفردات المعرَّبة ، وكثيراً من المفردات والعبارات القبلية التي تشمل خمسين لهجة ، كما قال أبو بكر الواسطي . غير أنه لم يكن ليستوعب تلك الأشكال التعبيرية اليومية المُتجددة ، وهي بعيدة عن غاياته وتوجيهاته . وإنما يمثلها حقيقةً ما كان يجري على ألسنة العرب الفصحاء من شعر ونثر ، فلا بد من الرجوع إليه للبحث حتى يتمثل فيه العمق والدقة والاستيعاب .

٢ ـ ما السبيل إلى إخراج قواعد نحوية ، يتحكم بها القرآن ويحكمها ؟

الجواب : إن النحو القرآني ضرورة ملِحّة في حقل العلوم العربية ، وحاجة أساسية في ميادين التنظير والتطبيق . وكم نادى بتحقيقه رجالات اللغة والنقد والأدب ، وقرعت أسماعنا صرخاتهم ونحن على مقاعد الدراسة الجامعية !

فالبحث العلمي يقتضي اعتبار المستويات اللغوية في التقعيد . وهذا واجب علينا أن نوليه اهتمامنا مع الإقرار بأن العربية وحدة لا تتجزأ . فالقرآن الكريم هو قمة البيان

العربي ، تليه بعدَ درجات ودرجات النصوصُ النبوية الشريفة ، ثم كلامُ العرب الفصحاء ، ثم الأشعارُ العربية المعتمدة .

ولا بد أن تقوم المؤسسات اللغوية في العالم العربي ، بجمع القراءات القرآنية مشهورها وشاذها ، ثم تكلف مجموعة من العلماء والباحثين باستقراء هذه الوثائق استقراء كاملاً ، وتصنيفها بحسب دلالاتها التركيبية بعيداً عن قواعد النحو المعروفة ، لتوزعها في حقول متايزة ، وتحلل تلك الدلالات وتستخلص منها القواعد التي تمثلها .

ويجب في مراحل هذه العمليات المنهجية أن توزع النصوص في مستويات تمثل الاطِّراد والقلّة والنُّدرة في التعبير والتركيب ، لتكون النتائج الضابطة للقواعد مميزة لتلك المستويات ، ومرفقة بعدد الآيات الكريمة المؤيدة لكل منها ، مع ذكر بعض النماذج الوافية .

وبهذا نكون قد حققنا غاية ، طالما داعبت قلوبنا وأسماعنا في ميادين العربية ، وشرعنا في درس المستويات اللغوية نحوياً ، لتمييز كل منها وبيان الاشتراك والاختلاف . وعلى غرار هذا النهج نولي الحديث النبوي الشريف دراسة تحليلية دقيقة ، لوضع القواعد النحوية التي يمثلها .

ثم نتابع الخطى في النثر العربي تبعاً لتوزعه اللغوي ، ثم في الشعر أيضاً حتى نهاية عصر الاحتجاج ، فيكون لدينا وضوح وبيان لقواعد كل مستوى على حدة ، نستخلص منها الضوابط العامة الناظمة لجمهور اللغة العربية ، مع تمايز المستويات في القواعد الخاصة بكل منها .

٣ ـ ما الفرق بين النحو المستمد من القرآن الكريم ، والنحو المستمد من النثر والشعر وحُوشي الكلام والأمثلة الافتراضية ؟

الجواب : يمكننا تحديد هذا الفرق بأن النحو القرآني ـ كما بيَّنّا استخلاصَه من

قبل ـ هو يمثل أعلى مراتب القواعد فصاحة وبياناً ، لأنه كان الخطاب به للعرب بعد مضي أحقاب لغوية متتابعة ، اكتسبت فيها العربية ألواناً من التشذيب والتعديل والتوليد ، حتى أصبحت تمثل قمة النضج البياني وأعلى مراحل التطور والصفاء ، بين اللهجات المختلفة للقبائل العربية .

فالقوانين النحوية المستنبطة من القرآن الكريم تقدم الصورة النموذجية ، لما ذكرنا من التطور والصفاء بأسلوب إلهي متميز ، وهي القواعد للعربية الفصحى ، في ألمع وجوهها وأصح نصوصها وأوثقها سنداً ومتناً ، وأدقها تعبيراً عن المقاصد القريبة والبعيدة ، وأخلدها في التاريخ ونفوس المسلمين وألسنتهم وعقولهم ، وأشملها لما كانت عليه لغة العرب في عهد التنزيل .

أما نحو كلام العرب فهو يمثل المستويات المختلفة من الشعر والنثر ، في القرون المتتابعة من عصر الاحتجاج قبل الإسلام وبعده ، وفي البيئات المختلفة من قبائل العرب ذات الفصاحة والبيان ، وفي النصوص التي لا ترقى في صحة أسانيدها ومتونها إلى ما تمتاز به الآيات القرآنية . فهو إذاً أوسع مدى في الدلالة على استيعاب اللهجاتْ والتفصيلات اللغوية ، للتعبير الفني ، والكلام اليومي في حاجات المجتمع الحيوية والمعاشية . ومن ثَمَّ كان أكثر تفاوتاً وخلافاً ، وأبعد عن تقديم قواعد نموذجية موحدة ، وأقل قدرة على الحظوة بالثقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ولذا كنا وما زلنا نرى في هذا النحو كثيراً من الشذوذ والنُّدرة والتفاوت في الأحكام ، والتفريعات اللهجية والزمانية والمكانية ، واختلاف المذاهب بين النحاة وعلماء العربية ، والطعن في بعض فرعياته واستدراكاته ، ونصوصه المعتمدة في التقعيد واستخلاص الضوابط والأحكام .

٤ ـ هل هناك دقائق نحوية في القرآن الكريم ، غفل عنها النحاة ؟ وما موقفكم منها ؟

الجواب : نعم ثمة دقائق نحوية في النص القرآني ، لم يتنبه إليها قدماء النحاة . فقد شُغل أوائلهم بقواعد تعبير القرآن ، لضبط قراءاته وصيانة أدائه وصياغة قوانينه في التعبير ، ثم خلف من بعدهم من وسَّع نظرته ، فأضاف ضوابط فرعية تَستدرك بعض ما فات المتقدمين .

وبقيت مع هذا تراكيب قرآنية غفل عنها النحاة في مصنفاتهم ، فكان لرجال التفسير مجال رحب وأفق طلق ، يتتبعون القراءات المختلفة ، ليكشفوا أسرار الصيغ والتراكيب والعبارات ، ويضيفوا لمسات جديدة إلى مسيرة النحو العربي .

وقد بدا هذا جليّاً في المصنفات التي تتناول إعراب القرآن ، وشواذ القراءات بخاصة ، فتوجِّه صور تراكيبها وصيغها ، وتولد منها القواعد والضوابط والقوانين ، للأداء الصوتي والصياغة اللفظية والوظائف الإعرابية ، والعلاقات بين المفردات والجمل والتراكيب .

وحسبك في هذا أن ترجع إلى « المحتسب » لابن جنّي ، وإعراب شواذ القراءات **لعديد من المصنفين ، وأعاريب القرآن المشهورة المتداولة . ففيها نماذج غفيرة مما** أشرتُ إليه ، تحمل استدراكات لبعض قواعد النحو وأحكامه .

وعندي أن هذه الظاهرة جديرة بالاهتمام والمتابعة ، لأن دقائق النص القرآني لَمّا تُستنفَد ولن تُستنفَدَ ، وهي غنية بالمسائل والظواهر والنماذج ، تتبدى للباحث مع الأيام ، وتتجلى له كلما ازداد اتصالاً ، بمنجزات العلوم والفنون والسلوك اللغوي . وإذا كنا لا نزال نكتشف في الشعر القديم بعضاً ، من النتائج المغفلة ، فإن القرآن الكريم أحق بذلك وأغنى وأوفى وأبعد مدى .

٥ ـ هل في القرآن الكريم إعجازات نحوية ، بجانب الإعجازات الأُخرى ؟

الجواب : للإجابة عن هذا ، يحسن بنا أن نحدد المراد بالإعجاز النحوي . ولعلي

لا أجانب الصواب إذا قلت : الإعجاز النحوي هو الارتقاء في نظم الكلام ، حتى يَخرجَ عن طوق البشر ، ويُعجِزَهم عن مجاراته .

وإذا كان النظم هو توخيَ أحكام النحو ، في نسق الأحرف لصياغة الكلمة ، والتأليفَ بين الكلمات لتكوين الجملة ، والربط بين الجمل لإنجاز العبارة ، فإن في القرآن الكريم صوراً جمة من الإعجاز النحوي ، تبدت في نظم لغوي فاق قدرات أرباب البيان والسحر الحلال .

ولعلك تتلمس ذلك في القراءات المختلفة ، إذ تجد صيغاً نادرة ، وأفعالاً عُبِّرَ بها عن أزمنة ليست في صيغها المحددة ، ونماذجَ عالية من النظم والتأليف ، وأشكالاً من التنكير والتعريف والتقديم والتأخير ، والوصف والتوكيد والإظهار والإضمار ، وتلويناً لاستخدام الضمائر ، بحسب المقاصد الدقيقة والمعاني البعيدة المدى ، وروابطَ متميزة بين الأسماء أو بين الأفعال والأسماء أو بين التراكيب ، ودلالاتٍ نحوية خاصة لكثير من الأدوات والأفعال والمصادر والمشتقات ، والعبارات والعلاقات والوظائف .

ففي حيز الأدوات مثلاً انفرد النص القرآني بتوظيف متميز لبعضها ، كالذي تراه في كثير من الآيات لمواقع : إذ وإذا وكما وكذلك وإن ولَمّا ولا وبل وأم ... وغيرُ بعيد عنا جميعاً افتتاح بعض السور القرآنية بالأحرف العربية المتداولة ، في تراكيب كثر الاختلاف في إدراك مقاصدها ، بلهَ محاولة مجاراتها في نثر أو شعر . فهي ما تزال تتحدى العقول ، وتتجاوز قدرات المعارضة والتقليد .

ولقد تعرض المفسرون لكثير مما أشرتُ إليه ، وتلمسوا له نظائر في كلام العرب الجاهلي والإسلامي ، فرجعوا بالخيبة ، مع أن الواحد منهم كان يحفظ ٣٠٠٠٠٠ شاهد شعري لتفسير القرآن الكريم . فكان أن بينوا ما للنص الإلهي من تميز وتفوق ، وحاروا في الكشف عن مواطن التفوق والتميز .

ثم توالى البلغاء مسلّمين بإعجازها ، والأدباء محاولين التقرب منها ، في نتاج شعر

أو نثر . وعندما عجزوا عن ذلك التقرب اقتبسوها بألفاظها ، فضمنوها عباراتهم إقراراً بترفعها عن المجاراة والتقليد . فلبثت شاهد عدل ، على قصور الإنسان إزاء سلطان القرآن .

والحق أن ميادين الإعجاز في النص القرآني مترامية الأبعاد . لا يحدها زمان ولا مكان ، ولا تنفد مادتها كما يقول السكاكي . وفي « دلائل الإعجاز » للإمام الجرجاني محاولات متعددة ، لتلمس جوانب من الإعجاز النحوي في آيات الذكر الحكيم .

ثم في كتب التفسير والإعجاز نماذج وافرة من ذلك ، نُسبت حيناً إلى البيان ، وآونة إلى علم المعاني . وهي في الحقيقة ضرب من النظم النحوي ، اشترك في تحليله علماء البلاغة والتفسير والإعجاز .

والغريب حقاً أن المصنفات التي عرضت ، لهذه النماذج القرآنية ، كانت تنسبها إلى الميادين الأدبية واللغوية المختلفة ، وقليلاً ما تخص بها النحو ، مع أنها هي منه وإليه . وأغرب من هذا أن الإمام السيوطي ، الذي جمع في « معترك الأقران » خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني ، أغفل النص على ما هو منها نحوي ، ونسبه إلى عنصر آخر من مكونات العلوم والفنون ، وميادين الحياة الفكرية والأدبية .

هذا مع أنه أشار في مستهل كتابه إلى إعجاز القرآن بنظمه ، وأورد في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز حسن التأليف والتئام الكلام والأساليب التعبيرية ، مما لم يكن قبله ولن يكون بعده نظير له .

٦ ـ تدرس المؤسسات العلمية في الوطن العربي كمية هائلة من القواعد اللغوية ، مع ما فيها من خلاف بين النحاة ، في حين أن الحياة العملية قد لا تحتاج إلى كل ذلك . فلماذا لا تقتصر الدراسات على ما يفي بتكوين المهارة اللغوية ؟

الجواب : معلوم أن المؤسسات التعليمية تتوزع في مستويات ، تناسب قدرات

الطلاب وحاجاتهم والغايات التي يُعَدُّون لها . ومعنى هذا أن ما يدرس في كل مرحلة أو مستوى يجب أن يتضمن ، من المادة النحوية ، ما يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل . فلا غرو أن يكون اختلاف في الكمية والدرجة ، تبعاً لاختلاف تلك الوظائف المرجوة من ناحية ، وللاختصاص الذي يتوجه إليه الطلاب من ناحية أُخرى .

فالكليات والمعاهد التي تعدُّ طلابها ، لتدريس النحو في المدارس المتوسطة والثانوية ، أو لمتابعة الدراسة العليا في هذا العِلم ، ينبغي لها أن تكلفهم بجميع الموضوعات النحوية في الإعراب والصرف ، وما يتفرع عن ذلك ، من تاريخ لهذا العلم يبسط مراحل تطوره ، مع عرض المذاهب والاتجاهات والخلافات والتوجيهات ، وتراجم الأعلام والمصنفات والدراسات التراثية والمعاصِرة .

أما الكليات والمعاهد الأُخرى فهي مكلفة بتدريس طلابها ، من موضوعات النحو ، ما يساعدهم على مقتضيات الحياة العملية ، من قراءة سليمة ، وكتابة صحيحة ، وفهم دقيق لما يُسمع أو يُقرأ . ثم يكون تدرج في تضييق نطاق المادة النحوية وتبسيط عناصرها ، مع نزولنا من المدارس الثانوية إلى المتوسطة فالابتدائية ، بما يحقق تكوين المهارات اللغوية اللازمة .

وعلى هذا تَتوضَّعُ الدراسة النحوية في مراحل التعليم هرماً ، قمته في السنوات الأخيرة من المدرسة الابتدائية ، وقاعدته في مؤسسات العلوم العربية ، وبينهما تدرج في الاتساع والاستيعاب والتدقيق والعمق ، ليتم البناء النحوي في المدارس والمعاهد والكليات ، لمجموع القطر العربي .

فأنت ترى أن مقتضيات الحياة العملية لتكوين المهارة تختلف احتياجاتها ، تبعاً لمستوى الدراسة ونوعها والغاية التي يُعَدّ لها الطالب . ثم إن مردود التعليم ، شأن كل جهد مادي أو حيوي ، لا يكون ١٠٠٪ ، بل هو دائماً دون ذلك بقليل أو كثير . ومعنى هذا أن ما يُزوَّده الطالب من المعلومات لا يتلقاه كله ، بل تتلاشى نسبة منه في العملية

التعليمية ، بين قدراتِ المدرس والطلاب ووسائلِ التعليم وأساليبه ، والبيئةِ الثقافية والحوافز المادية والمعنوية .

ثم يتناقص ما تلقاه ويتناقض مع الأيام ، حتّى لا يرسخ منه إلا قدر ضئيل غائم القسمات . فإذا أراد استخدامه في حياته العملية احتاج إلى جهد شخصي في المتابعة ، ليسدد ما لديه ويقيم أوده في متابعة حاجاته . ولذلك أصبح من الضروري أن يزوَّد كل مستوى من الدراسة معلومات تفوق حاجاته الوظيفية ، بقدر ظاهر يعوض ما يُحتمل تسربه قبل الممارسة والاستخدام .

على أن هذا لا يشفع لما هو شائع في الدرس النحوي المعاصر ، من حشد المعلومات المتراكمة ، والتفصيلات المرهقة ، والوجوه المحتملة للصيغة والعبارة والإعراب ، وما هو جائز أو صحيح أو ضعيف أو نادر أو شاذ ، والخلافات المذهبية الشخصية ، والعبارات المصطنعة لملء الأحكام المفترضة .

فحسْبُ تلاميذ المدارس أصول القواعد النحوية مبسطة موضحة ، وخالية من التفصيلات والشذوذ والخلاف ، ومقرونة بالنصوص العملية التي تصل المعلومات بما تقتضيه الحياة .

وإلاّ فما معنى أن يلقَّن تلاميذ المدرسة وجوهَ إعراب الاسم بعد « لا سيما » ، وبعد الاستثناء بـ « خلا وعدا وحاشا » ، والتابعَ للمنادى والمجرور لفظاً ، والاختصاصَ والإغراء والتحذير ، والاشتغالَ والتنازع ، ولغةَ الحجازيين والتميميين في خبر « ما » ، ومذهبَ البصريين والكوفيين في خبر « إنّ » وأخواتها ، والعطفَ على اسم « إنّ » قبل الخبر وبعده ، والعطفَ على فعل الشرط الجازم وجوابه ؟

إن أمثال هذه المعلومات ينبغي لها أن تبقى في حيز الدراسات الجامعية ، التي تعدّ مدرسين للنحو . بل إن بعض هذه المعلومات ، كالوجوه والاحتمالات والمذاهب

والخلافات ، يجب أن ينقل إلى تاريخ النحو ، ليتلقاه طلاب تلك الكليات في السنة الجامعية الأخيرة ، بعد أن يتقنوا الأصول النظرية والعملية للقواعد والأحكام .

وإلاّ فإنّ ركاماً مزيجاً من المتناقضات والمتنافرات سيعيش في قلوب أبنائنا وألسنتهم ، ليصبح لديهم كلٌّ وجه جائزاً وله نظائر ، في اللهجات والمذاهب والتوجيهات . ونتيجة لهذا يرسخ في أذهان الدارسين والمدرسين وعامة الناس ، فتياناً وشيوخاً ، ما غرسه الجهل وأعداء العربية ، من أن لغتَنا الحبيب عسيرة جداً ، والنحوَ العربي بحر لا ساحل له ولا قرار ، وإتقانَ قواعد الكلام محال في محال في محال .

٧ ـ ما تقويمكم للمناهج النحوية السائدة ، في الوطن العربي ؟

الجواب : لقد عرضتُ ، فيما مضى ، لجانب من مناهج النحو هذه . فهي في مراحل المستويات المدرسية تكاد تكون موحدة في الأقطار العربية ، ويغلب عليها ـ طابع التكثر والاستطراد والتفريع ، وفتح أبواب اللهجات والمذاهب والاحتمال .

وهذا أمر تنكره أصولُ التربية والتعليم ، وقدسيةُ العربية في الضمائر والأفهام والعقول ، وحاجاتُ المجتمع والحاجات اليومية من المهارات اللغوية ، وما نلمسه من تعثر وقصور وتخليط في الأداء اللغوي ، والكتابة والتعبير والفهم ، لدى جمهور أبناء العرب ، وهم في السنوات المدرسية أو الجامعية ، وفي ميادين المهن والأعمال الحرة .

أما مناهج النحو في الجامعات العربية فهي متغايرة متباينة ، لا يصل بين أنماطها خطة أو وجهة أو سبيل . فكليات الآداب وعلوم العربية تدرُس من النحو مواد ومصادر ومراجع مختلفة ، إذ نرى في بعض الأقطار اعتماداً على الألفية وشرحها ، وفي بعض ثانٍ تقرير كتب معاصرة موحدة تفرض على كل الجامعات ، ويصنف أكثرها طلابٌ فيحشونها بالمتناقضات والأوهام ، وفي بعض ثالث توجهات غربية ، تحمل نظريات الدرس اللغوي الأعجمي ، وتسقطها على علوم العربية ، دون معرفة بأصول النحو وتطبيقاته .

ومثل هذا الخليط وهذه الأمشاج جدير بالملاحظة والاهتمام ، لما له من أثر في حاضر الدرس النحوي ومستقبله . فقد يظن بعض الناس أنه حلقات متكاملة تتعاون في تشكيل علم ، يصل الحاضر بالماضي والمستقبل ، ويُعِدُّ الأجيال المقبلة لتفكير نحوي نامٍ ، يستوعب حاجات الأمة في إنجازاتها الحيوية . ومن ثم يقال : إن التواصل بين التراث والمعاصَرة في هذه الزاوية غدا واقعاً عملياً كنا نصبو إليه منذ عقود ، ومرحلةً علمية غنية بالنتاج الإيجابي .

والحق أن هذا القول وذاك الظن قائمان على الوهم والخيال . فالأنماط المتباينة هذه متمايزة ، يعيش كل منها في بيئته مستقلاً بعيداً من التواصل والتعاون والوفاق ، إذ ليس لدينا مَن جمع بنجاح بين نمطين منها ، ليستطيع أن يقيم ما يرتجى من تلاقح للأفكار وامتزاج للآراء . إن الوشائج مبتوتة والقنوات مردومة والتبادل معدوم .

نعم قد يطلع علينا نحوي معاصر يتصدى للتراث دارساً ومحلِّلاً ، إلاّ أنه يبدو قاصراً في فهم المصطلحات والمنهج والمقاصد والأدلة والنتائج ، فيعبر عن ذلك بالتضليل والأوهام أو السخط والتذمر والنقمة . وقد يحاول عالم تراثي أن يتناول النظريات النحوية الغربية بالدرس والمعالجة ، فإذا هو يتهجم عليها منكراً مستهجناً ، دون معرفة لمواطن تميزها أو ضعفها ، أو مخاطر تطبيقها في الميدان العربي .

والعجب العجاب تراه ممن يدعي الاتصال بالجانبين ، وهو بعيد عنها يحمل شذرات من هنا وهناك ، ويحاول التلفيق والتوليد والاجتهاد . وقلَّما تجد من وُفِّق في إقامة تواصل ناجح ، بين بعض الأنماط المتقدمة الذكر .

٨ ـ ما مستقبل النحو العربي ، على ضوء الأصوات المنادية بإلغائه ، أو بحذف الكثير منه ، أو بتخفيف وطأته ، أو بإنشاء قواعد نحوية جديدة ؟

الجواب : النحو العربي أصل راسخ في العلوم الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، وهو عنصر جوهري في إعداد الإنسان لفهم اللغة والأدب والعلوم كلها ، حتى

الرياضيات والطب والفلك والتقنية الحديثة ، لأنه القوانين الضابطة لتكوين المهارات في لغة العرب ، فكراً وأداء وقراءةً وترجمة وكتابة وإبداعاً .

وليست هذه مقولة متعصب للغته أو دعوى خيال . فالدي يمارس الترجمة لفظاً **أو كتابة يقدّر ما للنحو ، من أهمية بالغة في عمله . حتى إنه لا يستطيع أن ينقل فكرة** واحدة نقلاً سليماً دقيقاً ، إذا لم يحسن توظيف نحوَينِ : نحو اللغة الأعجمية المترجم عنها ، ونحو اللغة العربية التي يصوغ بها . ولا نغالي إذا قلنا : إن العربي ، عندما يتلقى علماً معاصراً بلغة أجنبية قراءة أو سماعاً ، يترجم معلوماته ومفاهيمه ومصطلحاته بقوانين النحو العربية ، ليستطيع الفهم والإدراك والاستيعاب .

وعلى هذا ، فإنَّ المطالبة بتدريس تلك العلوم باللغة العربية تعني اختصار المراحل ، وجعل فكر الناشئة قادراً على التوليد والابتكار ، لا جهازاً معقداً يحمل تبعة الترجمة والصوغ والفهم ، ليستوعب المعارف والمعلومات بالمعاناة والتفكير المركَّب والعمليات المعقدة ، ثم يبقى عالة على منجزات العلوم المستوردة ، ومستهلِكاً للنظريات المتلاحقة ، دون التطلع إلى المشاركة العملية في تنميتها ، لأنه استنفد قدراته في الترجمة وما يتعلق بها .

ولهذا فإن إلغاء النحو ليس إلغاء للغة العرب وحدها ، بل هو إعدام للفكر العربي والشخصية العربية والعلوم والآداب والفنون من دنيا العروبة والإسلام . وقد تعالت تلك الأصوات منذ عقود بألسنة سدنة الاستعمار وزبانيته ، فلم تستطع أن تجد لها سوقاً رائجة ، وذهبت أدراج الرياح ، لأنها في الحقيقة تريد طمس معالم القرآن الكريم والإسلام الحنيف ، من وراء الدعوة إلى وأد النحو العربي . ويأبى الله إلاّ أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون . وإن كان بين صفوفنا من يروِّج لتلك الأصوات الآن فليعلم أن إرادة الله قاهرة ، وليُغلَبَنّ مُغالِبُ الغلاّبِ .

أما الحذف من النحو وتخفيف وطأته فمطلب عربي قديم ، نتلمسه في أول كتاب

سجله نحو العربية . فقد كانت الصحيفة التي صاغها الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ تضم معلومات يسيرة جداً لا تتعدى بضعة أسطر . ولما نسج أبو الأسود الدؤلي على منوال ما رسم له الإمام ، ونحا في الخطّة التي وجَّهه إليها ، صنَّف كتاباً سماه « المختصَر » . فهل بعد هذا من دليل على ولادة النحو العربي ، في أحضان البساطة واليسر وقرب المنال ؟

وبعد أن تتابعَتِ المصنفات ، واتسعت رقعة الدرس النحوي ، نشط كبار النحاة في ميدان التخفيف والتيسير ، لِما رأوا من حاجة لدى دارسي العربية إلى تجاوز التفريعات والاستطالات والتكثر . ولذلك رأيناهم يصنفون كتباً موجزة مبسَّطة ، كالذي صدر عن الكسائي والمازني والمبرد وابن النحاس وابن السراج والزجاجي وابن جنّي .

فقد لمس هؤلاء وأمثالهم خطورة المطولات ، نحو كتاب سيبويه ، في الدرس النحوي عند الأطفال والناشئة والشباب ، وخروجها على ما تتطلبه المهارات اللغوية فأعدّوا لهم مصنفاتٍ قريبة المنال ، يسيرة العبارة ، بعيدة عن التعقيد والإطالة والحجاج والشذوذ والخلاف .

ولهذا أصبحنا نرى كتباً ، كالمقدمة لخلف الأحمر ، والجمل في النحو للخليل ، والتفاحة لابن النحاس ، والجمل للزجاجي ، والموجز لابن السَّرّاج ، واللمع والمقتضب لابن جنّي . وكان قبل ذلك وبعده مثل المختصر للكسائي والجرمي واليزيدي ... والنحو الصغير لابن قتيبة ، والمهذب لابن كيسان والدينوري .

بل إن كتاب المبرد الذي سماه « المقتضب » هو قريب من هذا الميدان . فقد جعله مختصراً ، يضم الأصول الضرورية للدراسة النحوية في عصره ، فكان في عشراتٍ من الأوراق .

وإذا كنا نراه الآن في مجلدات أربعة ضخام مَهيبة ، تبهرُ من يشهدها ، وتزرع في

قلبه الرهبة والقصور ، فليس ذلك ذنب المبرد في صنيعه . وإنما هو من التوزيع المتقطع للفقرات المتصلة ، وحشد الحواشي والتعليقات والاستدراكات ، وعرض الخلافات التي كانت في عدة قرون بعد المبرد . ولو جُرِّد من هذه المظاهر المقحمة عليه لكان مقتضباً لطيفاً ، لا يتجاوز بتحقيقه وفهرسته مجلداً واحداً .

وقد تابع المتأخرون مسيرة الاختصار والتيسير ، حتى صرنا نقف على عناوين من مثل : المنتخب والوجيز والمقرَّب ، والكافية والشافية والتسهيل والخلاصة ... كل يحاول تلخيص قواعد النحو وأحكامه ، وتهذيب ضوابطه وأمثلته ، وتقريب تناوله إلى طبقات الناس ، والانتخاب منه ما هو ضروري لهم ، وجعله مناسباً للمستويات المختلفة ، ومؤدياً للحاجات العلمية والعملية ، وتكوين المهارة اللغوية لدى الناس .

ونحن الآن مطالبون بمثل هذا ، ليكون بين أيدي طلابنا في المدارس والجامعات غير المتخصصة بالعلوم العربية ، كتب نحوية مشذبة ميسرة ، تراعي جميع المستويات ، فنُغفِل الشواردَ والشَّواذَّ ووجوهَ الاحتمال والقواعدَ غير العملية ، ونعرض المادة النحوية بلغة العصر وأساليبه في التعليم والتربية ، مع الحفاظ على الأصول الجوهرية للنحو ومزجها بالنصوص الأدبية الأخاذة ، ليكون ما يُصنف علماً وعملاً وفهماً وذوقاً وتحليلاً . وإن تقصيرنا في هذه المُهِمّة يعني تأخير التوظيف الحقيقي للنحو في ميادين الحياة ، وإشاعة السخط عليه في بعض النفوس ، وتشجيع الألسنة والأقلام للنيل منه وللتمرد عليه .

ويجب علينا ههنا الإشارة إلى أمر مهم ، فيما عرضنا من تاريخ لتيسير النحو . وهو أن مفهوم التيسير خاضع للنسبية ، يختلف في المادة والعرض والاستدلال ، تبعاً للبيئة الثقافية والعلمية . فما كان مقتضباً أو مختصراً ، في القرن الثالث الهجري ، قد يبدو مطولاً مسهباً فيه بعد بضعة قرون . وما كان جملاً أو مقدِّمة ، في عهد الجرجاني ومقام التبريزي ، قد نراه اليوم مفصلاً أو عسيراً بعيد المنال .

فليست تلك المختصرات المذكورة قادرة على تحقيق ما نريد ، ولا بد من جهد معاصر مخلص ، يصل الماضي بالحاضر ، ويحقق للّغة العربية حاجتها في تيسير النحو وتخفيف وطأته . ولا يعني هذا إنشاء قواعد جديدة تبعاً لما ينادي به بعض الغيورين على العربية . فالقواعد راسخة لا تنقض ولا تجدَّد ، إلا إذا أردنا هدم الصرح وتدمير البناء .

وإنما تصاغ بروح العِلم نفسه ومصطلحاته ومفاهيمه ، وبأسلوب عصري يراعي مستوى المرحلة الدراسية ومقاصد التوظيف العملي للأحكام والضوابط . وبذلك نكون قد استوعبنا أمواج التشكيك والتهديم والإلغاء ، ووضعنا حلولاً إيجابية لمشكلات تعليم النحو ، واستخدامه في مقاصد الحياة ومتطلباتها المعاصرة .

هذا هو مستقبل النحو العربي كما أراه ، وأُومن بتحققه مع الأيام القريبة العاجلة ، إن شاء الله . وهو مستقبل مشرق يحفظ أصالة العلم ، وحضوره في مختلِف العلوم والآداب والفنون والمهن ، ويضع لبناتِ الوصل بين الماضي والحاضر في التيسير ، وخطواتٍ منهجيةً لتكوين المهارات اللغوية المختلفة بالاستيعاب والممارسة والأداء ، مع استمرار التوسع والتفصيل والاستطراد في بحث الخلافات واللهجات والوجوه المتكاثرة ، لدى من يطلب الاختصاص في علم النحو أو جانب من جوانبه . وإن غداً لِناظرِه قريب .

٥

اللغة العربية الفصحى
أسباب انحدارها وعوامل النهوض بها*

أسباب الانحدار

نحن ـ أبناء العرب في المشرق والمغرب ـ نعاني كثيراً من الآلام المشتركة ، ونحس بحاجة إلى التعاون على معالجتها للتخلص من ذيول التخلف المرير . وبعض هذه الآلام عميق الجذور في نفوسنا ، خطير الأثر في حاضرنا ومستقبلنا ، بعيد المدى في تكويننا الحضاري والإنساني ، يكاد يستعصي على التقويم والإصلاح .

ولعل من أبرز هذه الآلام المستعصية ما تنوء به لغتنا العربية الفصحى . فنحن

---

* نشر في الأعداد : ٩ لعام ١٣٩٨ و ٢ و ٣ لعام ١٤٠٠ من المجلة العربية ، مقدماً له بما يلي :

دعوة خاصة إلى كل عالم في اللغة العربية وإلى كل غيور على الفصحى في كافة الأقطار العربية :

يشرف المجلة العربية أن تقدم هذه الدعوة الخاصة إلى كل عالم في اللغة العربية وآدابها ، وإلى كل مثقف وغيور على لغة الضاد للإسهام في هذا الباب الخاص ببيان الرأي ، أو بتوجيه الملاحظة ، أو بإيجاد الحلّ للمشكلة المستعصية التالية :

يسافر العربي إلى أيّ بلد في الغرب بغية استكمال دراسته ، ولا يكاد يُمضي سنة أو أقل حتى يتقن لغة ذلك البلد : قراءة ، وكتابة ، وحديثاً . ويستطيع بعدئذٍ أن يكتب أطروحة « ماجستير » أو « دكتوراه » دون أن يقع في خطأ لغوي يذكر .

ويأتي رجل من الغرب إلى بلادنا ليتعلم اللغة العربية الفصحى ، فيقضي الأعوام ، ثم يبقى بعدئذٍ غير قادر على القراءة الصحيحة ، أو الكتابة السليمة ، أو الحديث الخالي من الأخطاء . =

ـ مدرسين وأدباء وعلماء ـ كثيراً ما نشكو مما آلت إليه هذه اللغة في ديار العرب . إنها تعيش حبيس بعض الدوائر الصغرى من حياتنا العلمية ، ولا تستطيع أن تتنفس في كل ميدان ، وعلى كل قلم ولسان . بل إن بعض المثقفين ومدعي العلم والأدب ليعجز أن يتمثل هذه اللغة المباركة في نشاطه وإنتاجه ، فيصب عليها سخطه وغضبه ، ويرى النجاة من عثراته في التفلت من أحكام العربية وقواعدها ، لينطلق في متاهات العجمة والضلال . حتى لقد أصبح من أشيع المبادئ وأروجها أن تتسلل أصابع العامية والأعجمية إلى لغة العلماء والأدباء ، بلة الدارسين والمتأدبين .

١ ـ العامية والثقافة :

وإننا لا ننكر أن تكون اللهجات العامية ، في بلاد العرب ، قد دخل عليها تحسن ملموس في هذا القرن ، بعد جلاء دول الاحتلال والاستعمار ، فارتقت من حضيض

= أكثر من هذا أن أبناءنا ، وهم عرب لساناً وبلداً ومحيطاً ، والذين يتخصصون في علوم العربية وآدابها في معظم جامعاتنا العربية لا يكادون يقيمون حديثاً خالياً من لحن ، أو لا يكادون يستطيعون قراءة خالية من أخطاء .

تُرى لِمَ هذا الفرق بين لغتنا ولغة الآخرين ؟

أين يكمن سرّ هذا الضعف ؟

أتراه في جوهر اللغة العربية ؟

أم هو في الكتاب المدرسيّ المقرر ؟

أم هو في مناهج التعليم ؟

أم هو في رجال التعليم ؟

أم هو في مكان آخر ؟

كيف نتقن لغتنا ؟

كيف ننشرها بين الناس سهلة التعلم والإتقان ؟

كيف نجعل « عربيتنا » لغة عالمية ؟

ويسرّ « المجلة العربية » أن تفتتح هذا الباب برأي الدكتور « فخر الدين قباوة » أستاذ كرسيّ علوم اللغة العربية والأدب العربي القديم في كلية الآداب بجامعة حلب ، وعرضه على المناقشة على كل صعيد تأييداً أو تفنيداً .

العجمة المغرقة إلى مستوى يتصل ببعض مظاهر الفصحى وأساليبها . وقد ساعد على ذلك انحسارُ اللغات الأعجمية التي كانت مستبدة بالثقافة والتعليم والتوجيه ، وتقلص رقعة الأمية في المجتمع العربي . ولذا أصبحت ترى اللهجات المحلية تغزوها كلمات فصيحة ، وجمل عربية ، وعبارات قريبة جداً من الفصحى .

ولعل هذه الظاهرة قد ضللت بعض الباحثين ، فباتوا يرون أن مشكلة اللغة أمرها يسير ، وأنها قضية اجتماعية ثقافية ، علاجها محو الأمية ونشر التعليم والثقافة .

٢ ـ انحدار الفصحى :

والحق أن ارتفاع مستوى العامية واكبه انحدار لغة العلم والأدب ، وتدني أساليبها ومفرداتها ، كتابة وقراءة وأداء . وإذا قُدِّر لنا أن نسير في هذا الاتجاه مراحل أخرى فإن اللغة الفصحى ستصبح ، بلا شك ، في خطر محقق ينذر بالفناء والضياع . فاللهجات العامية ، وهي تعارض الفصحى وتستقي منها ، تنقل إليها بعض تعابيرها وكلماتها على ألسنة المثقفين وأقلامهم ، فتشدها إلى ميادين غريبة تهدد بالاضمحلال والاندثار .

ولهذا أصبح ضعف اللغة العربية في صفوف المثقفين والمتعلمين ظاهرة ملحوظة تزداد قوة يوماً بعد يوم . فقد كان هؤلاء في عهود الاحتلال والاستعمار أشد حرصاً على فصاحة الكلمة ، وبلاغة العبارة ، والاستقاء من ينابيع البيان العربي الأصيل ، والإعراض عن رطانة الأعاجم وسفساف العامة . أما اليوم فقد أصبحنا نراهم ينزلقون إلى مهاوي العجمة واللهجات المحلية ، فيستمدون منها عامدين أو غافلين كثيراً من مادة نتاجهم الأدبي والعلمي .

وأنت ترى هذا الخطر يتفاقم مع الأيام حتى ليكادُ يشكل عثرة أزلية ، ومعضلة أبدية في طريق الأمة نحو اكتشاف ذاتها ، وتحديد سبل الحياة الكريمة المطمئنة . إنها

ليست مسألة لغوية اجتماعية فحسب ، وإنما هي داء نفسي وعقلي وعلمي ، يهدد مقومات العرب وحضارتهم ، ووجودهم في الحاضر والمستقبل .

وإذا حاولنا أن نتلمس بوادر هذا الداء ، ونتتبع أصوله ومصادره ، لنضع أيدينا على الأسباب التي ولدته ورعت نموه وتطوره ، استوقفتنا نقاط كثيرة متداخلة ، يتعذر حصرها وتحديد ملامح كل منها . وحسبنا أن نذكر ههنا أبرزها وأخطرها :

٣ ـ ثنائية لغوية :

ونعني بالثنائية اللغوية هذا التداخل العجيب بين الفصحى واللهجات الدارجة يستخدمها كل عربي ، مثقفاً كان أو أُميّاً . فهو يتلقى في طفولته الأولى لهجة عامية متهافتة ، ويُزوَّد بها في البيت ثم في الشارع والنادي والملعب والملهى ، وسائر مصادر الثقافة الشعبية . بل إنه يتعلم بعضها أيضاً في المدرسة والمعهد والجامعة ، ومن المذياع والصحافة والتلفاز ، ويمارسها في جميع شؤون حياته تفكيراً وتعبيراً . حتى إذا درس اللغة الفصحى قُدِّمت إليه مثقلة بأوزار العامية وما تحمله من آثار محلية وأعجمية ، تستبد بفكره ولسانه وقلمه ، وتغمر تلك الشذرات الفصحى ، وتفسد مدلولها وغاياتها التي ترمي إليها .

فإذا أراد الكتابة ، بعد هذا ، أو النظم أو القراءة في محفل ، قام في نفسه صراع خفي بين قوتين متدافعتين متناقضتين ، إحداهما تجره إلى الكثرة المفرطة التي غمرته بها بيئته ، والأُخرى تشده إلى بوارق غائمة مما زودته به بعض المصادر العربية الأصلية . فإذا هو يعاني عنفوان الصراع ، ويدفع نفسه جاهداً ليرتفع بها إلى أصالة اللغة وصفائها ، ولكنه يُجابَهُ بسلطان العامية المسيطرة على ثقافته وقدراته ، وبتفلت زمام الفصحى من يده ، فينهار أمام القوة الكبرى ، ويستسلم لتيارات اللهجات الدارجة ، تتخلل لغته فتفسدها أو تطغى عليها .

٤ ـ لغة هجينة :

وقد كان لهذا الرجحان عوامل مساعدة متناثرة ، أظهرها وأبلغها تسلط الأعاجم على البلاد العربية برجالهم وثقافتهم وحضارتهم ولغاتهم . فقد عشنا قروناً متوالية عبيداً أو كالعبيد ، لسلطان الأعاجم والفرنجة . فاضمحلَّ التيه العربي ، وذاب الاعتداد بالنفس واللغة والدين والتاريخ ، ليحلَّ محلّه الانبهار بالعجمة وزخارفها ، والاستسلام لبهرج التقليد والانحدار ، والتردي في أحضان الصَّغار . حتى إن كثيرين من أبنائنا أصبحوا ينظرون إلى الفرنجة ولغاتهم وثقافاتهم بعين الإكبار والإجلال ، ويرون الحضارة الإسلامية واللغة العربية أقل من أن تملأ قلوبنا وعقولنا ، وتثمرا واقعاً يمهد للنمو والتحرر والتقدم .

ولذا يطالعنا بين حين وآخر تعشق أبناء العروبة للغات الأعاجم وأخلاقهم ، وتفاخرهم باستخدام اللغات الهجينة في كلمات أو عبارات أو جمل ، وإعراضهم عن البيان العربي تحت وطأة الضعف اللغوي الذي يعانون ، والانهيار النفسي الذي يكابدون .

صحيح أن اللهجات الدارجة هي في الأصل تشويه للعربية الفصحى ، وصحيح أيضاً أن هذا التشويه لم يكن للاحتلال والاستعمار يدٌ في غرس جذوره ، وأنه نشأ وتولد من مصادر ثلاثة : انتشار الموالي والمولدين ، واستلطاف لُكنة الأطفال والأعاجم ، والإعراض عن فحولة الكلام وفصاحته ، بما جُبل عليه الإنسان من إخلاد إلى السهل الميسور ، وتفلت من قيود القوانين الحازمة . ولكننا لا نستطيع أن نغفل الآثار التي كانت للمحتلين والمستعمرين في تعميق هذا الاتجاه ، ورعايته ، ودفعه نحو الرسوخ والاستمرار .

وقد ساعد على ترجيح كفة العامية ، وتثبيت دعائمها واستحكام سلطانها ، أن النتاج العلمي والأدبي الذي أصدره العرب والمستعربون في هذا العصر كان مصبوغاً

بألوان هجينة مهلهلة ركيكة ، أقبل عليها المثقفون والمتعلمون ، فرسخت في أذهانهم وألسنتهم تلك الرَّطانة ، ودمَّرت ما بقي من فلول العربية الفصحى . وإذا خلا الكتاب أو الصحيفة من الركاكة والهجنة لم يكن في مستوى لغوي رائق ، وكثرت فيه الأخطاء والسقطات ، ولم يحظ بالضبط المناسب للحروف ، فكانت قراءته تزيد المثقفين ضعفاً وانحداراً .

٥ ـ مناهج قلقة :

والسبب الثاني الخطير ، في انحدار العربية الفصحى ، هو اضطراب التعليم في الوطن العربي . ونعني به ما يسود المناهج الدراسية ، والسياسة التعليمية ، وأساليب التربية والتعليم ، وشخصيات المعلمين ، من فوضى وقلق واضمحلال .

فالمناهج ، ولا سيما مناهج اللغة العربية ، لم تستطع أن تجد لها بعد الاستقلال مستقرّاً واضح المعالم ، جلي الهدف ، ناجح الوسائل ، تنطلق فيه من مراحل العبودية والاستعمار إلى فسحة التحرر والبناء . وما زالت حتى يومنا هذا تتخبط بين مدّ وجزر ، وتنتقل من سيّئ إلى أسوأ . فالمسؤولون يتعاورون هذه المناهج ، ويتصرفون فيها كل بحسب ما تمليه عليه أوهامه ونظراته المرتجلة ، فيكون تقلقل وتغيرات مستمرة ليس لها ضابط هادف ، أو روح عامة موحدة .

٦ ـ العلوم الإنسانية :

والسياسة التعليمية في الوطن العربي ليس فيها وضوح يصل مراحل التعليم بعضها ببعض ، ويجعل كلاً منها متمماً لما قبله وبعده . وهي ما تزال تجاهر بالتنكر للعلوم الإنسانية ، والتشجيع للعلوم الطبيعية . وقد أدى هذا ، بلا شك ، إلى تضعضع مكانة اللغة العربية وما يدور في فلكها من علم وفن . ولهذا ترى جمهور الطلاب ، والمتفوقين منهم بخاصة ، ينصرفون بجهودهم إلى دراسة الطب والهندسة والعلوم التطبيقية ،

ويعرضون عن تجنيد أنفسهم وكِفاياتهم لخدمة العربية ، فتفقد بذلك عقولاً فتية ، وقلوباً متعطشة ، وقدرات هائلة ، ونفوساً مندفعة نحو الإبداع والإنتاج .

٧ ـ التعليم بالعامية :

وأساليب التعليم عندنا تغفل اللغة الفصحى ، وتجيز للمعلمين أن ينقلوا العلوم والفنون باللهجات المحلية الدارجة . بل إنها لتفرض عليهم أحياناً أن يدرّسوا بعضها باللغات الأعجمية . وكثيراً ما تُنقل اللغة العربية الفصحى إلى الطلاب بأساليب عامية ، أو شبه عامية ، فتدخل عقولهم ، وترسخ في ألسنتهم هجينة شوهاء .

أضف إلى هذا أن القراءة الصامتة والجهرية تشجِّع الطلاب ، في شكلها المتَّبع اليوم ، على إهمال الفصحى ، والتنكر لها ، وإتقان الأساليب العامية في التعبير واللفظ والأداء . وبهذا يقوم في نفوس الناشئة انفصال كبير بين العلم والثقافة والخبرة من جهة ، واللغة العربية الفصحى من جهة ثانية ، فإذا أرادوا نقل ما في نفوسهم ، من تجارب وخبرات وعواطف وأخيلة ، لم يجدوا غير العامية أو الأعجمية سبيلاً .

٨ ـ اختبار الذاكرة :

والامتحانات ، على ما فيها من عناية بالعربية ، لم تعط اللغة الفصحى حقها من التقويم والتقدير . فكلنا يعلم ما تظهره مؤسسات التعليم من شروط خاصة لنجاح الطلاب في مواد اللغة العربية ، بل في نجاحهم العام الذي يرتبط بتلك المواد . وكلنا يعلم أيضاً أن تلك المظاهر جوف سطحية ، لا تدعمها أسس عملية تخدم تمكين الفصحى وسيادتها .

فالامتحان التحريري يجوز فيه كل تعبير ، وتُغتفر فيه أكبر الأخطاء وأشنع التراكيب ، ويكتفى فيه بأداء المعلومات دون النظر إلى اللغة التي أدتها وعبرت عنها . ثم تكون المساعدات تلو المساعدات لإنقاذ الراسبين ، ودفعهم إلى الصفوف التالية

أو الجامعة أو الشارع . والامتحان الشفهي أو العملي ليس له كبير اهتمام باللغة ، وحسب الناجح فيه أن يجتاز مقاييس اختبار الذاكرة والذكاء والأداء .

٩ ـ قدوة هزيلة :

وشخصيات المعلمين لدينا ينقصها الوعي اللغوي والاجتماعي ، وتشغلها حاجات الحياة بأثقالها وهمومها . فالمعلمون في المدارس الابتدائية ، والمدرسون في المدارس الإعدادية والثانوية والمعاهد ، والأساتذة في الجامعات ، عندهم كثير من الرواسب اللغوية المختلفة التي تزيد اللهجات العامية قوة ونماء . ومدرس العربية خاصة يمثل ، في نظر الطلاب ، صورة الجمود والجفاف والتعصب ، لأنه لم يحظ بالثقافة الواعية ، واللغة العملية الرشيقة ، والنظرة السليمة إلى دور اللغة في التعليم ، وقدرتها على النمو واستيعاب حاجات الأمة في مراحل حياتها المختلفة .

ورجال التعليم عامة يعيشون في بؤس وفاقة ، ويعانون مرارة الحاجة والحرمان ، فلا يجدون فرصة سانحة للنهوض بأنفسهم وطلابهم . وحسبهم أن يرمّموا بعض الثغرات المتقادمة ، ويقدموا إلى الأمة أجيالاً من العقول المثقلة ، والقلوب العازفة عن فصاحة العربية وأدبها وعلومها وفنونها .

أضف إلى هذا أن كثيراً من رجال التربية والتعليم يصل إلى منصبه ، ويتسلَّم زمام التوجيه والقيادة ، بشهادة شكلية من إحدى الجامعات ، أو أحد المعاهد أو الأحزاب الحاكمة ، وليس لديه من الكفايات والإمكانات ما يرشحه لهذا العمل الخطير .

فإذا علمنا أن مهمة المعلم تربوية ، قبل أن تكون تعليمية ، وأنه لا يستطيع أن يقوم بها بنجاح إلا حين يسيطر على قلوب طلابه وعقولهم ، وينال ثقتهم وتقديرهم لشخصيته وكفاياته ، ويجعلهم ينظرون إليه نظرة الإعجاب والتقليد ... إذا علمنا هذا كله علمنا أيةُ جريمة نقترفها حين نهمل شخصية معلم العربية وغيرِها ، ونضع أمام أبنائنا قدوة هزيلة في المدرسة والمجتمع .

تلك أبرز الأسباب التي هدمت صرح اللغة الفصحى ، قد بسطناها في شيء من الإيجاز ، على أمل أن نعرض لها بالعلاج العملي في مقالة أخرى ، إن شاء الله . ونحن ، إذ نُعِدُّ أنفسنا لذلك ، نُهيب بالعلماء والأدباء أن يشاركونا في تشخيص هذا الداء ، ووضع العلاج الناجع له . لعلنا نعيد إلى لغة القرآن إشراقها وسلطانها في العالم خاصة ، والمجتمع الإنساني عامة .

عوامل النهوض

كان للدعوة الكريمة ، التي وجهتها المجلة العربية ، في العدد التاسع من سنتها الثانية ، إلى علماء اللغة العربية ومحبِّيها ، وافتتحتُها بإثارة واقع الفصحى ، ومنابع ما تعانيه من مشكلات ، كان لهذه الدعوة أصداء بعيدة المدى في نفوس الزملاء والباحثين ، فألقوا في الميدان مقالات كثيرة ، ومحاولات متعددة ، حملتها هذه المجلةُ المخلصة للعربية ، وغيرُها من المجلات والصحف الوفية .

وقد عرض أولئك الإخوة الأكارم ، في تلك الصفحات المتكاثرة ، ألواناً مختلفة من النظرات الصائبة ، التي تحلل أدواء الوضع اللغوي العربي ، وتضع الخطوط العملية لمعالجة هذه الأدواء ، والوصول بالعربية الفصحى إلى مستواها الكريم ، ومكانتها في المجتمع العربي والعالم أجمع .

ولقد تتبعتُ تلك الجهود المشكورة ، ولمست في جنباتها حميّة الباحثين وغيرتهم على العروبة ولسانها المبين . كما أنني تحسست بُعد هممهم في تقصي العوامل السلبية والإيجابية لمعالجة الواقع اللغوي المعاصر ، ودفعه نحو الرقي والصفاء والصحة .

وأرى أنه قد آن لي أن أجمع بقايا ما نثرتُه من قبل ، فأبسط الأسباب والعوامل الإيجابية التي تضيء السبيل ، مع تلك المشاعل الواعية ، للنهوض باللغة الفصحى . ولا شك أن ما أُوردُه هنا سيكون في بعض ما ذكره الزملاء الكرام ، إلا أنني أضيف إلى جهودهم لمسات مخلصة تسدد الخطى ، وتتابع بناء النهضة اللغوية المباركة .

ولعل خير سبيل أسلكه ، في هذه المحاولة ، هو أن أتتبع أسباب الضعف والانحدار

واحداً بعد الآخر ، وأعرض ما يقابله من عوامل الإحياء والإنماء ، لنصل إلى النقلة الكبرى والشفاء الشامل .

١ ـ سيادة الفصحى :

إن الثنائية اللغوية التي نعانيها لا يكون الخلاص منها إلا ببديل واضح القسمات ، عميق الجذور ، نابع من الوجدان العربي ، والأصالة اللغوية المشتركة بين جميع بلاد العروبة . وهذا لا يكون إلا بسيادة اللغة الفصحى . فليكن في أرض العروبة لغة موحدة لا منافس لها ، لغة تنبع من أصول العربية الصافية ، وتستمد حياتها ونماءها من حاجات المجتمع والتعليم والحضارة ، لغة بسيطة حية يتحدث بها الإنسان العربي ، ويكتب ويفكر ، ويخطب ويشعر ، لتحلَّ محل الازدواج العقيم ، في اللغة القديمة المتصلبة ، واللهجات العامية المائعة .

وهذا يعني أنه لا بدَّ من تقريب الشقة بين المتنافرَين ، وتقوية أحدهما لتكون له السيادة والقدرة على استيعاب الحياة والبقاء . وأرى أن يكون ذلك بتبسيط لغة القدماء ، وإزالة الوحشي والمتقعر ، ونشر المفردات العربية الرشيقة ، التي هي أصيلة موروثة أو مصنوعة بأساليب الاشتقاق والتعريب ، تجمع أصول الفصاحة وسيرورة الحياة اليومية الحاضرة ، في جمل بسيطة وعبارات موجزة حية .

٢ ـ العزة القومية :

إن هذه الثروة اللغوية تقتضي بذوراً روحية ومادية ، تهيئ لها ظروف النجاح والاستقرار . وأول ما يذكر هنا تألق الشعور القومي ، وطغيان التقديس للعربية الفصحى . فلقد كان أجدادنا القدماء يتيهون بلسانهم المبين ، ويفاخرون الدنيا بأنه أكرم اللغات وأسماها ، وأحقها بالتقديس والإكبار . إنهم هم الفصحاء وسائر الناس أعاجم ، وآداب العرب الجاهلية تزحم بمنكبيها فلسفة الأمم وعلومها .

ولا بد لنا من إثارة هذا القبس وإيقاده في النفوس ، ليستبد بالقلوب والعقول ، ويطيح بأصنام العبودية للبيئة المحلية والغرب والشرق ، ويحملنا على التضحية بالمال والنفس والجهد في سبيل تدعيم لغتنا المقدسة ، لغة القرآن والفصاحة والبيان .

يجب أن يرسخ في عقولنا ، وعقول أبنائنا ، أن اللغة الفصحى ليست أداة كتابة فحسب ، وإنما هي روحنا ، ومصدر حياتنا ، وسياج خلودنا ، والرابطة الوثقى لوحدتنا ، ومنبع الفكر والحضارة والعلم في تاريخنا القديم والحاضر والمستقبل . فالحفاظ عليها واجب ديني تمليه علينا العقيدة ، وضرورة قومية يذكيها إيماننا بالوحدة والحضارة والخلود ، ومسؤولية إنسانية يؤرثها حبنا للحق والخير والجمال ، كي نقدم للعالم تراثاً حضارياً يسهم في بناء الروح والمادة ، ويربط الشرق بالغرب ، ويصل الحاضر بالماضي والمستقبل .

والحفاظ عليها يقتضي نشرها بين أبناء العرب جميعاً ، ونقلها إلى كل محب للعربية أو راغب في العلم والمعرفة . فلا يجوز أن تحبس في بعض المطابع والمكتبات والجامعات والندوات ، بل لا بد لها أن تغزو البيوت والشوارع والأسواق والدوائر الرسمية والملاهي والملاعب والصحافة والإذاعة ... وتتملّاها القلوب والألسن ، وتصبح هي لغة الحديث والعلم والأدب ، لا تشوبها لكنة ولا عجمة ولا تقعر .

٣ ـ دعوات مشبوهة :

أما دعاة العامية واللغات المحلية أو الأعجمية ، في العلم والأدب أو الحياة اليومية ، فهم في هذه القضية متهمون ، متهمون بالتآمر على ديننا وعروبتنا والتاريخ والحضارة . ولذلك يجدر بنا أن نكافح دسائسهم ، ونكشف غاياتهم الدنيئة ، ونمنع نشر نتاجهم أو تداوله بوسائل مختلفة في ميادين التعليم والإعلام ، لنقطع سبل التشويه الذي ينصب في ألسنة الناشئة وقلوبها وتفكيرها .

وهذا يعني أن تكون الفصحى لغة الكتاب ، والصحيفة والمجلة ، والإذاعة والتلفاز ، والمسرح والمدرسة ، وتكون من الدولة رقابة صارمة توجه العلماء والأدباء والكتاب ، وتشجع على نشر الفصاحة والبيان في كل نتاج تعبر عنه ، ليشعر الناس جميعاً بواجباتهم في هذا الميدان ، وتتكاتف الجهود في سبيل غرس الفصيح ، ونزع شوائب العامية والعجمة .

إنها قضية مصيرية : قضية حياة أو موت . وإذا كان من الحق أن الأمة تنقل كثيراً من خصائصها إلى اللغة ، فتسمها بالقوة والشيوع أو الضعف والجمود ، فإن من الحق أيضاً أن اللغة تُكسب أبناءها كثيراً من خصائصها ، فتزرع في ضمائرهم الطموح والعزة ، أو العجز والخنوع . فإذا سمت لغتنا وخلدت كنا أعزاء خالدين ، وإذا خنقت وتضعضعت أصبحنا في عداد العبيد المشردين . إننا إذاً ندافع عن وجودنا وخلودنا وكرامتنا حين نحمي اللغة الفصحى ، ونحييها في المجتمع العربي والأوساط العالمية ، ونجعلها اللغة السائدة في بلاد العرب .

٤ ـ مرحلة انتقالية :

وإذا تعذر علينا تحقيق هذه الأمنية دفعة واحدة ، لما يعترض اللغة الموحدة من صعوبات عملية ، كان علينا أن نبدأ مرحلة انتقالية ، تضم مستويين متمايزين مستقلين ، بلا ازدواج ولا انحلال ، فنحن لا ننكر أن يكون في هذه النقلة البدائية للإنسان العربي منفذان لغويان : أحدهما هو العربية الفصحى ، والآخر هو العربية الوسطى .

أما الأولى فهي لغة الكتابة ، والحديث العلمي والفني والإعلامي والتعليمي . وقد ذكرتُ من قبلُ ما يجب أن تتسم به من رشاقة وصفاء وحيوية . وأما الثانية فلغة تستمد مفرداتها وأساليبها من العربية ، ولكنها تتجاوز مقتضيات الإعراب الدقيقة ، فتعتمد تسكين أواخر الكلمات ، وتتصرف في بعض صيغ المفردات وصوغ الجمل ، بما يناسب

الحياة اليومية ، ويستوعب جوانب المستويات الاجتماعية المختلفة . إنها لغة شعبية يتداولها الناس في البيت والشارع ، والجلسات العائلية الاجتماعية العابرة ، والنوادي والمحافل والاجتماعات غير الرسمية .

ولسنا في هذا نصطنع سبيلاً متميزة تخالف طبيعة الحياة اللغوية ، وتفرض ما لا تعرفه الأمم . فلو تتبعنا واقع اللغات القومية ، في بقاع العالم ، لرأينا مصداق ما نصبو إليه في هذه المرحلة الانتقالية . إن كل أمة في هذا المجتمع الدولي تعيش في مستويين لغويين : أحدهما للمجالات الأدبية والعلمية والفنية ، كتابة وخطابة وشعراً . والآخر للأحاديث ، والمعاملات اليومية ، وما يكون في العمل والبيت والشارع والمنتديات . إنك لتجد هذا ظاهراً جلياً حيثما وجهت نظرك بين الأمم ، تجده في فرنسة وألمانية ، وأمريكة وإنكلترة ، والاتحاد السوفييتي والصين ، وتركية وإيران ...

ولا بد ههنا من ملاحظة أساسية نوجهها ، وتوضح السبيل . فلكي تكون هذه الحركة المتصوَّرة ناجحة في الحياة العملية ، تؤسِّس مرحلة انتقالية متطورة ، وتُوصِل إلى مراحل إيجابية ناجحة ، يجب أن تستقل كل من هاتين اللغتين عن الأخرى استقلالاً واضحاً جلياً ، وتتميز منها بلا ثنائية ولا اضمحلال .

ولعلنا نقرِّب هذه الصورة بما نعرفه لدى بعض المثقفين في بلادنا . فمنهم من يتقن العربية ، وإلى جانبها يتقن لغة أجنبية كالفرنسية والإنجليزية والروسية مثلاً ، ولكنه في حديثه وكتاباته يميز بين اللغتين ، ويستخدم كلاًّ منهما في مواقف خاصة ، دون أن يسمح للأخرى بالتدخل والتشويه .

إن لكل منهما ألفاظها وأساليبها وقواعدها وأنماط تفكيرها ، يستخدمها برمتها واضحة مستقلة في الميادين المناسبة . والسرُّ في ذلك التميز الواضح أنه أخذ كل لغة منفردة قائمة برأسها ، وتلقاها دون أن تختلط بها عناصر اللغة الثانية ، فأدرك حدودها وأصولها سائغة ، وتدرب عليها مستقلة صِرفاً ، فاستطاع أن يجعلها خبرة واضحة

الحدود والقسمات ، يستعين بها في المواقف التي تقتضيها ، دون أن تتدخل عناصر اللغة الثانية وتفسد صفاءها .

على مثل هذا ، تستطيع أن تعيش اللغتان : العربية الفصحى ، والعربية الوسطى . فلكل منهما ميدانها وحدودها وألفاظها وأساليبها ، ولا مجال للتداخل والازدواج . وذلك أمر نعرفه عملياً ، في عصرنا الحاضر ، لدى كثير من المثقفين والعلماء العرب . فهم في الكتابة ، والحديث العلمي أو الفني ، يعتمدون الفصاحة والبيان . وفي منازلهم ومعاملاتهم اليومية وأحاديثهم الخاصة يصطنعون لغة مادتها عربية فصيحة ، وصورتها وسيطة بين العامية والفصحى . وقد ازداد هذا وضوحاً وإشراقاً ، بازدياد انتشار العلم والمعرفة ، واضمحلال الأمية والجهل .

فإذا استقر هذا ، وانتشر في صفوف المستويات الاجتماعية المختلفة ، تيسر لنا أن نخطو الخطوة التالية بنجاح واتّزان . أعني الانتقال من مرحلة اللغتين المتقاربتين مادة ، المختلفتين صورة ، إلى لغة موحدة في الروح والإطار . وذلك بتوسع رقعة الفصحى شيئاً فشيئاً ، لتستوعب ميادين اللغة الوسطى ، وتضمها إلى مملكتها برفق وأناة .

٥ ـ إعداد وتقديم :

وهذا يعني الوعي الكامل للمسؤولية ، حتى نستطيع إدراك الخطوات الناجحة بأسبابها الموضوعية . فلا مفر من دراسات ميدانية ، لما يستخدم من مفردات وتراكيب في الحياة العامة ، ولصلتها باللغة العربية الأم . وبذلك نضع أيدينا على كثير من نقاط الالتقاء ، تجلو ما نظنه من عامية في قسم كبير من كلام الناس . فإذا استطعنا اكتشاف هذه الجوانب ، وصقل الاستطالات الفرعية بالفصيح ، جمعنا بين الحياة والفكر في ميدان واحد .

ولكي نصل إلى هذه المرحلة الحاسمة ، لا بد لنا من الشعور بالمسؤولية في العلاج

والتقويم . ويكون ذلك بوضوح الهدف ، وسداد الوسائل العملية . وأول ذلك أن نقدم اللغة الفصحى خالصة ، في ميادين التدريس والتثقيف والتعليم والتربية والإعلام ، لا تشوبها أقذاء اللهجات المحلية ، ولا تعرقلها ألوان اللحن والرِّكة والعجمة .

فليضع المسؤولون في البلاد ، والمؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية ، ورجالات الفكر والسياسة والأدب ، في قلوبهم أن الفصحى هي في طليعة قضايانا المصيرية ، وعليهم أن يولوها أكبر عناية واهتمام وتقدير ، لتستطيع في سنوات قليلة أن تجتاز مرحلة الجمود والاحتباس ، إلى مرحلة المشاركة الفعالة في زاوية كبيرة من الحياة ، ثم إلى المرحلة النهائية ، فسحة التفتح والإشراق والسيادة .

وهنا لا مفر من رقابة واعية دائمة ، تستوعب جميع مناحي الثقافة والتوجيه والإعلام والتربية والتعليم ، رقابة تشرف على النتاج الفني والعلمي والأدبي والسياسي والاجتماعي ، لتدفعه إلى الناس بأسلوب عملي مشرق ، يغذيهم بالفصاحة والبيان ، ويحبب إليهم لغة القرآن ، ويعلمهم أساليب التعبير المختلفة ، ويأخذ بأيديهم إلى المستوى اللغوي الكريم .

إن أمتنا لتحتاج إلى هذه الرقابة أكثر من حاجتها إلى الرقابات السياسية القائمة ، التي تُفرض على نتاج الأدباء والعلماء والمصلحين . وإننا لنُهيب بالمسؤولين أن يفرضوا على كل مطبعة وإذاعة ، ومدرسة ومعهد وجامعة ومسرح ، إشرافاً لغوياً دقيقاً ، يحمل أعباء تنفيذه أدباء مثقفون يتفرغون له ، ويتابعون تحقيقه وتطويره وتنميته في كل مجال .

٦ ـ كتب التعليم :

وإذا كان من العسير أن نلم ، في هذه العجالة ، بتلك المجالات كلها ، فحسبنا الإشارة إلى أهمها ، ولنبدأ بالكتاب .

فالكتب المدرسية والجامعية تقتضي مشرفين لغويين ، ذوي خبرة عالية وآفاق متفتحة ، يقوّمون عباراتها ، ويشذبون كلماتها ، ويصححون تراكيبها ، ويضبطون حروفها بالشكل المناسب لكل مستوى ، ليتناولها الطلاب سائغة سليمة من كل خلل وعجمة ، حافلة بالفصاحة والبلاغة والصفاء ، وراسخة بأصول دقيقة معبرة عن الموضوعات المختلفة . وبذلك نحمّلهم العلم والفن والأدب بالأسلوب العربي المشرق ، ونغرس في ألسنتهم وعقولهم لغة رائعة رفيعة ، ينهلون منها في التفكير والتعبير .

وأول ما نذكره في هذا الميدان كتب اللغة والأدب والنحو . فهي بحاجة إلى تجديد في مضمونها وأسلوبها ، يناسب الغاية التي تصبو إليها . فلننزع منها الجمود والميوعة معاً ، ولنزرع فيها نظرة هادئة ، تحقق تنمية القدرات اللغوية والأدبية والفكرية ، دون الإغراق في المصطلحات المتكاثرة والظواهر الجانبية السطحية .

ليكن بين أيدي طلابنا معاجم ميسرة ، متدرجة في السعة ، كل منها يمثل مرحلة دراسية ، فيستوعب مفرداتها ويمس جوانبها المختلفة . أما كتب الأدب فتقتضي أن تتضمن اهتماماً بالغاً بالتراث العربي ، يناسب المراحل التعليمية ، ويزود الطلاب بالأساليب الفنية والعلمية ، للتفكير والتعبير ، ويهيئهم للقيادة الأدبية والعقلية . وبذلك تكون هذه الكتب وسيلة ثقافية ولغوية وفنية .

وأما كتب النحو فيحسن أن تتوارى في السنوات الأولى الابتدائية ، وتقتصر الإشارات في هذا الميدان على تطبيقات في القراءة والكتابة والحوار ، لكشف أصول التعبير السليم . وفي أواخر المرحلة الابتدائية يدخل كتاب النحو بسيطاً جداً ، بعد أن يكون الطالب قد جمع ذخيرة لغوية تستوعب بعض القواعد والأصول .

وحري بنا أن نبسّط هذا الكتاب ليكون قاصراً على ملاحظات بدائية سطحية عامة . ثم تأتي كتب المرحلتين الإعدادية والثانوية بتفريعات يسيرة جوهرية ، دون التطرق لما نصطنعه الآن من استطالات وتمحلات في الحياة التعليمية . ولنضع في كتبنا

هذه ما يرمي إلى العناية بالتركيب تعبيراً وتفكيراً ، أكثر من العناية بالتحليل الإعرابي الدقيق .

ثم تكون الدراسة الجامعية ، فيحين لأمهات المصادر اللغوية والأدبية والنحوية أن تصبح مادة التعلم والتخصص ، في قسم اللغة العربية خاصة . وهنا يطَّلع الطلاب على التفصيلات ودقائق الجزيئات ، ومختلف المذاهب وأبعاد التعمق والتمحيص ، ويتناولونها زاداً ثقافياً وعلمياً ، فيكون الضروري منها وسيلة لإتقان العربية وآدابها وعلومها ، والباقي يعيش في نفوسهم معلومات تاريخية ، لا يجوز نقلها إلى الحياة التعليمية ، والميادين اللغوية والأدبية .

أما الأقسام والكليات الأخرى فتحتفظ كتب العربية فيها بالخطوط التي كانت عليها في المراحل المتقدمة ، مع تنمية عملية للقدرات اللغوية والأدبية ، في التعبير والتفكير والتذوق .

وأما سائر الكتب التعليمية والتربوية ، في جميع مراحل الدراسة ، فيجب أن تساهم في تعليم اللغة للطلاب وتقويمها . وذلك بأن تصاغ بعبارة رائقة ، وتراكيب سليمة ، ومفردات فصيحة ، تزود قارئها باللغة القومية سائغة ، ليعبر بطلاقة واتِّزان ، عن جميع ميادينِ الحياة الاجتماعية ، والعلمية والسياسية والاقتصادية والفنية . وهذا يقتضي بالضرورة تعريب الكتب العلمية في الجامعات العربية ، لنفضِ آثار العجمة عن ألسنة الشُّبان ، وتزويدِهم بالمعلومات في ثوب عربي مبين .

٧ ـ كتب الثقافة :

وما دمنا في الحديث عن هذا الميدان فلا بد من إشارة إلى الكتب الثقافية ، في مجالات اللغة والأدب والنحو . إننا في حاجة إلى معاجم مبسطة ، تشكل مستويات متتابعة في سلسلة كاملة ، أولها شعبي مبسط يضم المفردات العامية الفصيحة التي يكثر استخدامها في شؤون الحياة اليومية ، مع بعض الكلمات والعبارات التي تخص الفنون

والعلوم والصناعات . وآخرها يجمع إلى ذلك ما يشمل مستوى عالياً من تلك الجوانب ، مع تراجم موجزة وتعريف يسير برجالات الفكر والتاريخ ، والمصطلحات المختلفة .

وكذلك حال الأدب والنحو . فنحن في حاجة إلى كتب شعبية موزعة على مستويات مختلفة ، تتناول قواعد النحو والإملاء ، وتاريخ الأدب العربي ، بأسلوب مبسط ، ومعلومات موجزة وافية . وهذا يهيئ للناس جميعاً المعارف المناسبة لتطوير ثقافتهم ، وحلّ المشكلات التي تعترضهم في المسائل اللغوية والأدبية والنحوية ، كل يوم .

ولا ننس أخيراً الكتب الثقافية ، في مجالات الدين والمجتمع والفن والسياسة والاقتصاد ... فهذه الكتب كلها في حاجة إلى مستوى لغوي سليم ، يختار الكلمة والعبارة ، ويستهدف عرض الموضوعات العامة والخاصة ، بأسلوب عربي فصيح ، ويقدم للجماهير زاداً فكرياً وروحياً وسلوكياً ، في الإطار التعبيري القويم . وبذلك تستطيع الجماهير أن تتشبع بهذا الزاد في ثوبه اللغوي العربي الصافي ، وتستفيد منه معارف وأساليب تعبيرية أصيلة .

وهنا لا مفر لنا من الوقوف عند الترجمة ، لأن كثيراً من هذه الكتب الثقافية يُستمد من مصادر أجنبية ، وكتّابه لغتهم هجينة ، فتكون كتاباتهم أعجمية الفكر والبيان . وهذا يقتضي تهيئة كتّاب وباحثين ، يحسنون نقل الموضوعات المختلفة إلى العربية الفصحى من سائر اللغات ، وتكون عباراتهم صافية ، تعتمد أساليب لغتنا الكريمة ومفرداتها ، ومنطقها التعبيري .

أما المصطلحات والتعبيرات الخاصة ببعض اللغات الأجنبية فتعالج بالترجمة العلمية ، وإلا فبالتعريب للألفاظ . وإذا تعذر ذلك لجأنا إلى النحت والاشتقاق . ولا ضير بعد هذا أن تَصحَب تلك المصطلحات والتعبيرات ، بألفاظها الأعجمية ، ما يقابلها من العربية ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

٨ ـ السياسة التعليمية :

إن مناهج التعليم في البلاد العربية تقتضي استقراراً ، ينتظمه تخطيط واضح الأهداف ثابتها ، ليتسنى العمل الإيجابي المثمر ، الذي يقود إلى الأهداف التعليمية والتربوية ، ويحقق نهوضاً حضارياً وعلمياً ، ويهيئ للدارسين والمدرسين جواً فكرياً وبيئة لغوية حية ، ويستمر بالطلاب خطوة فخطوة إلى ميدان العروبة القراح ، ويجعلهم ينضحون بالبيان والفصاحة في كل مجال تعبيري .

وهذا يتطلب تعاون الخبراء والمسؤولين لتوضيح معنى التحرر التعليمي ، والنهوض الحضاري ، ولتحقيق تعريب المناهج تعريباً جذرياً كاملاً ، يتناول أصول التفكير والمعرفة والمثل واللغة والسلوك والعمل ، فيربط بعضها ببعض ، ويقدم إلى الأمة أجيالاً عربية الفكر والفن والعلم والتعبير والأخلاق .

ولذا كان على ساسة التعليم أن يضعوا خطة واضحة ، تنتظم جميع مراحله ، وتُعِدّ كل منها ، مستعينة بما قبلها ، للمرحلة التي بعدها . وبذلك يجد أبناء الأمة أنفسهم يسيرون في خط مستقيم قاصد ، واضح الوسيلة والغاية ، نقاطه متلاحقة متعاونة متواصلة ، وهدفه بناء الإنسان العربي شعوراً وعقلاً ولساناً وعاطفة .

ولابد في هذه السياسة المذكورة أن يكون للدراسات الأدبية واللغوية مكانة بارزة . فتُرصَد للعاملين في ميادينها موارد مغرية ، تشجعهم على المضي في البذل والعطاء ، وتجْذب إليها أفذاذ الطلاب ونابهيهم ، وتحملهم على الإعراض عن ميادين التجارة والصناعة والزراعة وسائر المهن ، لتصفو للعربية عقول جبارة ، وأقلام مخلصة ، وبحث منتج رفيع .

لسنا نريد أن يكون كل الطلاب أدباء أو لغويين . وحسبنا أن يندفع إلى هذه الساحة نفر من ذوي العقول النابغة ، والقلوب الفتية المتدفقة إبداعاً وبناء وحماسة .

وهؤلاء سيهدون ، بلا شك ، لحركة لغوية ضخمة ، تكون مبعث الأمل ومحط الرجاء ، وتستقطب جماهير الأذكياء والمفكرين ، وتوجههم نحو الهدف الكبير .

٩ ـ لغة التعليم :

يضاف إلى هذا أن تكون اللغة الفصحى وسيلة التربية والتعليم في جميع المدارس والمعاهد والكليات . فالعلوم والفنون والمهن المختلفة يجب أن تنقل إلى الطلاب باللغة العربية الفصيحة ، محاضرة ، ومناقشة ، وخطبة ، وكتابة . ولا يجوز تداول العامية واللهجات المحلية في هذه الأرجاء ، أية كانت العقبات والأعذار ، ولا يجوز أيضاً تداول الأعجمية إلا في الساعات المحددة لدراسة تلك اللغات .

أما الذين لا يحسنون العربية الفصيحة ، من علماء وطننا العربي وخبرائه ، فليس لهم أن يكونوا معلمين أو مدرسين أو أساتذة . وإذا أرادوا خدمة أمتهم بوفاء وإخلاص فليتقنوا لغتها ، ولينقلوا بها ما يحملون من خبرة وعلم ، أو ليبقوا خبراء يستعان بهم دون أن يدخلوا ميادين التعليم .

١٠ ـ العربية والعلوم والفنون :

ومن سيادة الفصحى أن يمهد سبيلها في جميع الكليات الأدبية والعلمية والفنية والتربوية والعملية ، فيكون في كل سنة دراسية ساعات وافرة لتدريس العربية لغة وأدباً . وبذلك لا ينقطع المهندسون والأطباء والصيادلة ، وعلماء الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء ، والمتخصصون في الآداب الأجنبية والتربية والنحت والرسم والفنون المختلفة ، لا ينقطع هؤلاء جميعاً عن مناهل العروبة الصافية ، فيبقى تفكيرهم وتعبيرهم مشدودَين بأساليب الفصحى وأصولها وقواعدها ، ويساهمون في ترميم الثغرات التي فتقتها اللغات الأعجمية واللهجات المحلية في حياة لغتنا المباركة .

ومما يغرس جذور العربية في نفوس الناشئة أن يدربوا في طفولتهم على القراءة

الدقيقة المضبوطة المعبرة ، ويستمر ذلك في جميع المواد الدراسية ، مع عناية خاصة بالقراءة الصامتة . وذلك ليتعود الطفل في سنواته المدرسية الأولى أن يقرأ كتبه وقصصه بعينيه وإدراكه مراعياً مخارج الحروف وضبطها ، وإعراب أواخر الكلمات ، ومواطن الوقف والابتداء والانفعالات التعبيرية المختلفة ، ومقتضيات الشعر والقصة والمسرحية والخطابة .

ويسعفنا في هذا المجال الإلحاح على تلاوة القرآن الكريم في كل يوم مدرسي ، والإكثار من النصوص الأدبية الرفيعة ، من حديث نبوي شريف وخطب ورسائل وقصص ومسرحيات وشعر ... لنعوض ما خسرته الحضارة الإسلامية بانحسار دُور القرآن ومدارس الحديث الشريف .

فالقراءة المكررة لآيات الله البيِّنات ، وللشعر الممتاز ، وللنثر الفني المختار ، تكسب الإنسان خبرة باللفظ الصحيح والحركة والسكون والكلمة والجملة والعبارة ، وتغرس في ذاكرته ولسانه الصور الحركية والصوتية للغة الفصيحة . فإذا أراد التفكير فكر بها صافية سائغة ، وأحسَّ بالكلمات الدقيقة المضبوطة السليمة تتدفق إلى ذهنه مصاحبة ذلك التفكير . وإذا أراد التعبير عبر بها أيضاً ، وسالت على لسانه أو قلمه عروبة خالصة وبياناً سخياً .

إن حفظ القرآن الكريم والنصوص الشعرية والنثرية الرفيعة يقوِّم لسان الطفل ، ويضع في ذاكرته وفكره وجهازه الصوتي عادات لغوية سليمة ، وزاداً أدبياً يسدد تفكيره ولسانه ، ومقاييس تعبيرية واضحة يحتكم إليها واعياً وغير واع .

ويظهر هذا كله جلياً في الحياة العملية . فالإنسان الذي ثُقف باللغة الفصحى في جميع مجالات دراسته ، يستقبل الفكرة والخاطرة والحادثة والقراءة والكتابة بالمستوى الذي نشأ عليه ، فإذا هو يعتمد التعبير الفصيح بديهة وارتجالاً .

ذلك لأنه قد تلقى الكلمات والجمل والتراكيب ، موشحة بالصور الصوتية

الصحيحة ،.فأدرك معانيها مقترنة بتلك الصور ، وحفظتها ذاكرته مصحوبة بأشكالها الحركية المنسجمة ، فهو لا يستطيع استحضار تلك المعاني إلا إذا استحضر الصور الصوتية والأشكال الحركية ، منتظمة دقيقة سليمة .

وحسبنا دليلاً على هذا أن نرقب أنفسنا ، ونحن نتلو بعض آيات الذكر الحكيم تلاوة صامتة أو جهرية . فسنلاحظ بلا شك أننا ، لكثرة اتصالنا بالقرآن الكريم تلاوة وسماعاً ، نسرد الآيات سرداً متقناً محكماً ، مصحوباً بكل ما يقتضيه من الصور الصوتية الأصلية والفرعية .

ويعزز هذا الدليل أن يختبر اثنان منا نفسيهما في مجالَي التفكير والتعبير . فالذي تلقى العربية الفصحى في كل ميادين دراسته ومطالعته يصدر في تفكيره وتعبيره عن صفاء لغوي عفوي . والذي تلقى العربية مشوبة بالعامية والأعجمية يكون تفكير وتعبيره العفويان مشوهين بعيدين من روح العروبة . وإذا حاول أن يرتفع بهما أو بأحدهما ، قاصداً واعياً خذلته قدراته ، ولم يستطع أن يتحرر من قيود العجمة والرّكة والاختلال .

١١ ـ الضبط والترقيم :

لذا كان من الضروري أن يُضبط الكتاب المدرسي ضبطاً شبه كامل ، فلا تُغفل منه إلا حروف المعاني وبعض الأحرف الساكنة . وأعني بالكتاب المدرسي كل كتاب أعدّ للمدرسة ، في جميع مراحلها وجميع موادها الدراسية ، الأدبية واللغوية والعلمية والفنية والاجتماعية . أما الكتب الجامعية والثقافية العامة ، والمجلات والصحف ، فيُضبط بعض كلماتها وحروفها لئلا يكون فيها مجال للخطأ والفساد اللغوي .

إن الحركات التي نُغفل رسمها في كتابتنا هي حروف متممة للكلمات . وقد أُهملت كثيراً حتى ظنها بعض المعاصرين قيماً صوتية ثانوية ، فتسامحوا فيها بالحذف والتغيير والتشويه . إنها في أول الكلمة ووسطها وآخرها حروف كاملة تسهم في تأدية المعنى

وتحديده . فإن لم تُعط حقها ، في القراءة والكلام والتفكير ، فسد المعنى أو دخله الاختلال والسطحية . فلا بد من إثبات كل رمز صوتي يساعد على ضبط الكلمة ، حركة كان أم همزة أم تضعيفاً أم تنويناً .

وإذا أضفنا إلى هذا علامات الترقيم ، فوضعنا كلاً منها في المكان المناسب بعناية ودقة ، قدمنا للقارئ خدمة عربية ناجعة ، تساعده على فهم المعنى ، وتعلّم اللفظ السليم في القراءة والتعبير . فإذا هو يعطي كل حرف حقّه من الصوت ، وكل كلمة وجملة وعبارة حقّها من الأصوات والنبرات والأداء .

١٢ ـ العربية والامتحان :

أما الامتحانات فلا بد أن تحظى اللغة العربية منها بالنصيب الأوفى . وهذا يعني أن تكون لغتنا الحبيب هي الوسيلة الأولى في الاختبارات الشفهية والعملية والتحريرية . ولكي تستفيد هذه اللغة وتفيد يجب أن تكون الامتحانات كلها بالعربية الفصحى ، في جميع المقررات الدراسية ماعدا مقررات اللغات الأعجمية ، فيعطى التعبيران الكتابي والشفهي تقديراً ذا أهمية بالغة ، ولا يستطيع الطالب إدراك النجاح إلا إذا أتقن التعبير العربي الفصيح كتابة ولفظاً وأداءً .

هذا في مواد الدراسة العلمية والفنية والاجتماعية . أما مواد الدراسة العربية ، من لغة ونحو وأدب وتعبير وإملاء وبلاغة وعروض ، فيجب أن يكون لها تقدير أبلغ وأوضح . ومن ذلك أن تجعل درجة النجاح فيها عالية جداً قريبة من التمام .

فالطالب الذي يجتاز امتحان اللغة العربية ، بدرجة متوسطة ، لا يعرف من المبادئ اللغوية وأساليبها وعلومها ما يقيم عبارته وفكره وقراءته . ولا شك أنه سيعيش بين العامية والأعجمية ، ولن يكون عاملاً إيجابياً في بناء لغة فصيحة . ولكن إذا طُلب منه في النجاح تقدير عال بذل قصارى جهده في إتقان تلك المبادئ والأساليب فهماً وتدريباً وممارسة ، وصرف كثيراً من وقته في المطالعة والكتابة

الأدبيتين ، وفي الخطاب الفصيح الرشيق . وبذلك نعده لبنة صالحة في مجتمع عربي قويم .

١٣ ـ العربية ورجال التعليم :

وأما المعلمون والمدرسون وأساتذة الجامعات فأكثرهم ، في البلاد العربية ، لا يتقنون الفصحى ولا يستطيعون أن يمارسوها كتابة وقراءة وأداء . وعلى المسؤولين أن يعدوهم إعداداً لغوياً سليماً ، ويزودوهم في المعاهد والدراسات الجامعية بالقدرات اللغوية والأدبية ، ولا يسمحوا لهم بتسلم زمام التعليم ، أيّاً كان نوعه ، إلا بعد الاطمئنان إلى كفاياتهم وإمكاناتهم في تلك الميادين ، والتحقق أنهم أهل لهذا العمل القيادي الكبير .

لا يجوز أبداً أن يكون في مدرسة أو معهد أو جامعة ، مدرس أو موجه أو إداري إلاّ وهو متقن للعربية الفصحى ، ومحسن لاستخدامها ، وله صلة بتاريخها وأصولها وقواعدها وآدابها وعلومها ، ولو كان ممن يدرِّس اللغات الأعجمية . فهو ، على كل حال ، ينقل إلى الطلاب معارف وعلوماً وخبرات . فيجب أن يرافقها التعبير اللغوي القويم ، لتدخل إلى نفوسهم بذلك القالب العربي ، وتظهر في تفكيرهم وحديثهم وسلوكهم خاضعة له ، ومزينة به ، وغارقة فيه .

وإذا كان هذا ضرورياً ، لرجال التعليم كافة ، فهو لمن يتصدون لتدريس العربية أكثر ضرورة وأبعد أهمية . بل يجب أن يكون هؤلاء على علم دقيق بأسرار اللغة الفصحى ودقائقها ، ليختاروا ما يناسب عصرهم وبيئتهم ، ويغرسوا في نفوس الطلاب زاداً لغوياً عملياً يستوعب مشكلاتهم وغاياتهم ، ويعبر عن عواطفهم وآمالهم وتجاربهم الحية ، تعبيراً إيجابياً خلاقاً .

وهذا يقتضي من مدرسي العربية ، بلا شك ، أن يكونوا على مستوى ثقافي رفيع ، وروح اجتماعية جذابة . فالثقافة الواعية العالية تصلهم بمشكلات العصر ، وتطلعهم على حقائقها وجوانبها وأبعادها ، وتيسر لهم الاستيعاب اللغوي البارع الحي ،

فيقدمون إلى الأمة ثقافة عربية قيمة ، وخبرات عملية في النتاجين الأدبي واللغوي . وبذلك يصبحون في ميادينهم قادة فكر وعمل وبيان ، يملكون زمام العقول والألسنة ، ويوجهونها في خط عربي أصيل .

والروح الاجتماعية الجذابة تدفع الطلاب والناس إلى محبتهم ، وتغرس في نفوسهم الاحترام والإعجاب ، وتحملهم على متابعة نشاطهم والاقتداء بهم طواعية واندفاعاً . وبذلك يمد مدرسو العربية أيديهم إلى القلوب والأرواح ، وتكون لهم السيادة الظاهرة في التوجيه والقيادة .

ولا بد في هذا المجال من إنصافهم أولاً ، ليكون لهم مستوى مادي وآخر معنوي كريمان يليقان بهم وبما يحملون . فالكفاية المادية ، والعناية الخاصة بهم ، يطفح منهما بشر في النفوس ، ولين في المعشر ، وصفاء في العقول ، وتفاؤل في التطلع ، وإبداع في العمل ، وجمال في الهيئة والطوية والسلوك .

إنهم قادة روح وقلب ، قبل أن يكونوا قادة عقل وفكر . فلا غرو أن نرى لمظهرهم ومخبرهم أثراً كبيراً في نتائج مهامهم . فإذا حفظنا لهم الكرامة ، وهيأنا لهم الجو الصحي في المادة والروح ، استطعنا أن نجعل منهم قادة مصلحين ، يسهرون على هذه اللغة ، ويحمون ثغورها ، ويرفعون جدرانها الحصينة في وجه كل طوفان وعدوان .

فليكن في سياستنا التعليمية أن يُختار رجال التعليم من ذوي الشخصيات المحبوبة ، والأخلاق العالية ، والنفوس الرضية ، وأن يُمنح المعلّمون عامة ، ومعلّمو العربية خاصة ، أكبر قدر من الرعاية والمكافآت المادية والمعنوية ، والامتيازات العالية التي تكفل لهم تيسير مهامهم وخدمة الأمة باندفاع وتفان ووفاء .

وقد خطت بعض الدول العربية في هذا الميدان خطوة إيجابية ، فخصت موظفي التعليم بامتيازات مالية يسيرة ، ترفع عن كواهلهم مشاق الحاجة والإملاق ، وتشجعهم

على العمل والبناء ، وترغب الطامحين من الناس في متابعة وظائف التربية والتعليم والتنافس عليها .

وإذا كنا الآن نذكر هذا بالشكر والتقدير فإننا لنصبو إلى ما هو أوسع منه وأجدى على العربية والعلم عامة . إننا لنرجو أن تعمّ هذه الظاهرة المتألقة جميع البلاد العربية ، وأن يكون لمدرسي اللغة الحبيب وحماتها امتيازات خاصة لا يشاركهم فيها أحد ، لتنصرف همم النابغين من الأطفال والناشئة إلى خدمة العربية وحمايتها ، وغرسها بإخلاص وحمية .

☆ ☆ ☆

أعتقد بعد هذا كله أننا إذا استطعنا أن نيسر للغة العربية تلك الأجواء الصحية المتآلفة : السيادة التامة للفصحى ، والاعتزاز القومي الهادف ، والتوجيه اللغوي الواعي ، والكتب السديدة المتقنة ، والسياسة التعليمية المحكمة ، والمعلمين المخلصين للفصحى ، إذا استطعنا تيسير هذا كاملاً فقد وفرنا للغتنا الكريمة وسائل العيش الكريم ، ومهدنا لها سبل الشفاء ، ونهضنا بها من كبوتها العاثرة ، التي تهددها بالاضمحلال والفناء .

وجدير بنا ، في هذه النقلة ، أن نستعين بالمنابع اللغوية الأصلية الحية ، التي ما زالت تعيش في أكثر بقاع بلاد العرب ، وتشكل حلقة الاتصال بين أقطار الوطن العربي ، في العنصر اللغوي . إنها اللهجات الدارجة في مناطق الريف والبادية . وهي أقرب إلى الفصاحة والصفاء من اللهجات العامية الشائعة . وهي أيضاً يشبه بعضها بعضاً في البقاع المختلفة ، أكثر من تشابه اللهجات العامية ، على الرغم مما فيها من تباين وحزونة وجفاء .

فإذا استطعنا اعتمادها في تقريب الشقة بين المستويات اللغوية المتباعدة ، وتخفيف تباينها ، وتهذيب حزونتها ، وتشذيب جفائها ، وضعنا بين أيدي الجماهير

مادة لغوية حية ، تمثل الفصاحة والسيرورة والحياة ، وتستجيب للتطور والنماء واستيعاب الحاجات التعبيرية المختلفة ، وتصل بين الماضي والحاضر ، وتوحد بين الأقطار العربية كلها . وبذلك نكون قد استفدنا من تجربة أجدادنا العظماء ، الذين جعلوا البادية مصدر علم العربية ، وميدان التأصيل والتوحيد والتصحيح في الدراسات اللغوية .

٦

لماذا هي خالدة خلود الإنسان ؟

سنّة الله ـ تعالى ـ في خلقه أن جميع المخلوقات تخضع لقانون التطور والفناء . تنشأ خافتة ضعيفة ، فإذا قدّر لها الحياة المديدة ترعرعت وثبتت ، ثم شاخت وهرمت وانحدرت إلى البلى :[1] ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيها فانٍ . ويَبقَى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ والإكرامِ ﴾ . تلك هي سنّة الكون ، في ظواهر الوجود وأشكاله وأجناسه وجماعاته وأفراده .

وكذلك عاشت لغات الأمم مع التاريخ : نَبتتْ في ديارها قاصرة ضامرة ، واستمدت عناصر الحياة في ألسنة أبنائها وعقولهم ، وممارساتهم لمشاغل العيش ومطامح البقاء ، فاستقام عودها واشتد قِوامها ، حتّى كان لها حضارةٌ ما وحضور في جنبات التاريخ . ثم عاجلتها عوامل الضعف والانقراض ، فغابت معالمها وجذورها وصورها ، أو تشعبت في فروع فتيّة جديدة ، يخالف بعضها بعضاً ، وتعاني كلها سنّة الحياة . فهل كانت لغة العرب مع هذا الناموس الحيوي ؟

مراحل الشباب والشيخوخة :

لقد حدثنا التاريخ ، بما حمل من آثار مسجلة أو مروية ، أن قديم العربية كان يمثل مراحل طفولة وتدرج ، ظهرت بين القبائل في لهجات يسوقها النمو نحو التطور

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرَّحمن .

والانتظام ، حتى نضجت في أواخر الجاهلية ، وتركزت في أُمِّ القُرى أصفى ما تكون ، وأرسخ ما يمكن من التأصيل والوحدة ، وأفصح ما تحمله تلك اللهجات من معالم ، وأقرب إلى خلاصة التجارب والمعاناة . وكانت صورة ذلك كله في شعر رفيع ونثر بديع ، يمثلان قمة النضج والنماء .

وإذ ذاك أراد الله ـ سبحانه ـ لهذه الأمة أن تكون هداية وقيادة وحضارة ، فاختار من أبنائها الرسول الكريم ، ومن لهجاتها اللسان المبين ، وكان أن اصطفى خيرَ كهولها مروءة وحكمة وصفاء لرسالته ، وأنصعَ بيانها دقة وبلاغة وإعجازاً لقرآنه العظيم . لقد امتدت يد الرحمن إلى صميم هذه الأمة وروحها ووجدانها ، ففجَّر فيها الطاقات الإنسانية واللغوية ، وهيأها للريادة والقيادة والخلود .

ولذا أصبحنا نرى فنون الأدب تتجدد وتتفرع وتتوالد ، وميادين العلوم تتفتح وتنمو وتمتد لتشمل جميع مرافق الحياة ، والطاقات اللغوية تزود ذلك كله بالنسغ الفياض لفظاً وتعبيراً ، وفكراً وتصويراً ، وإيقاعاً وعاطفة وخيالاً .

وقد صدر عن ذلك دراسات وبحوث غفيرة ، تمثل مختلِف العلوم والآداب والفنون والمهن ، باللغة العربية الفصحى المتجددة ، تستوعب المقاصد والغايات الكبرى ، وتعبر عن الدقيق والجليل ، والقريب والبعيد ، والظاهر والخفي ، وأعمق ما في الفكر والنفس والشعور والخيال ، على لسان من هو عربي أصيل أو مستعرب دخيل .

ثم توالت عليها عوامل النقض والتهديم بالنكسات السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتعاورتها سلاسل الكوارث من أعدائها وأبنائها قروناً بعد قرون . حتى إذا بلغنا العصر الحديث رأيناها تتشعب في الأقطار العربية ومدنها وقراها كاللهجات المحلية ، لا يمسك رمقها إلا خيط من الأمل دقيق ، يوشك أن يضمحل ويبلى فتذهب معه أدراج الرياح .

ومن ثَمَّ تعالت صرخات الاستغاثة والنُّدبة والرثاء ، حتى سمعنا صرخات العربية على لسان حافظ إبراهيم ، وهي تشعرنا بالقصور والضعف ، وتحتسب حياتها عند الله ـ تعالى ـ لأنها تُحتضَر ، وتنعى على أبناء العروبة أنهم لا يهبون لانتشالها من براثن الموت ، ويطربون لدعوة المستر ويلمور إلى استبدال العامية بالفصحى :

رَجَعتُ لِنَفسِي ، فاتَّهمتُ حَصاتِي ونادَيتُ قَومِي ، فاحتَسَبتُ حَياتِي
فيا وَيحَكُم ، أبلَى ، وتَبلَى مَحاسِنِي وفِيكُم ، وإن عَزَّ الدَّواءُ ، أُساتِي
فلا تَكِلُوني لِلزَّمانِ ، فإنَّنِي أخَافُ علَيكُم أنْ تَحِينَ وَفاتِي
أيُطرِبُكُم ، مِن جانِبِ الغَربِ ، ناعِبٌ يُنادِي بِوأدِي ، في رَبِيعِ حَياتِي ؟

وقد استقبل رجال الاستعمار هذه الصورة المزرية للغة العرب بالبهجة والارتياح : إنها سُنّة الحياة ونواميس الأحياء ، نشوء وارتقاء ونضج وهرم وفناء . لقد كانوا من قبلُ يخططون لهذا المصير ، ويمهدون له سبل الدعاية والغواية ، ويعمقون مسارب التجهيل والتغريب والتعجيم[1] .

ولما أدركوا يأس بعض العرب ، من صحوة لغوية أصيلة ، شرعوا يروِّجون للهجات المحلية والحروف اللاتينية ، لتكون أداء للعلوم والآداب والفنون ، وأطلقوا كل نشاطهم لتحقيق ذلك ، وجعلِه واقعاً لا مفر منه ، لتتشعب العربية وتتوزع هجينة مستعجمة ، على غرار ما كان للغة اللاتينية من فروع في العالم الأوربي .

عودة الروح والشباب :

لكن صحوة العرب حينذاك قطعت على أعدائهم السبيل ، ودحرت خططهم وآمالهم ، وبعثت في العربية روح النشاط ، فدبَّت فيها الحياة من جديد ، وتسلمت زمام مناحي الحياة والبحث والتعبير والتصنيف والتأليف . وبذلك تفجرت موارد ثرّة

(١) انظر الآداب ١ : ١٦٢ ـ ١٦٩ . المطبعة الجهوية بقسنطينة لعام ١٩٩٤ .

من الترجمة والتعريب والتوليد والاشتقاق والاصطلاح ، غطت كثيراً من الحاجات اللغوية ، وملأت العشرات والمئات والآلاف من الكتب العلمية ، في الفيزياء والكيمياء ، والطب والصيدلة ، والرياضيات والهندسة ، والزراعة والصناعة والتجارة ، والشؤون العسكرية والمالية والصحية والنفسية والتربوية ... وأصدرت الكثير من الصحف والمجلات والدوريات والنشرات العلمية المتخصصة ، والشعبية العامة لكل مجالات الحياة ، وزودت المواهب الفنية بالتعبير عن الفكر والخيال والأحاسيس والرموز والآمال والطموحات البعيدة المنال . حتى إنها استطاعت أن تدخل المحافل الدولية ، وكليات غفيرة من جامعات الدول العربية والأعجمية ، وتصبح لغة البحث العلمي الجامعي .

تمرُّد على القانون :

كانت هذه اليقظة اللغوية ضربة للناموس ، الذي اعتمده رجال الدراسات المعاصرة . فهل توقَّف التاريخ إزاء لغة العرب ، وتعطلت حركته في مسيرتها ، فلم تنته إلى التشتت والضياع ؟ أم خرجت العربية على القانون اللغوي العنيد ؟

لقد تأزمت لديهم عقدة النقص والشعور بالخيبة ، إذ رأوا أُمَّ لغاتهم تنزوي في مطاوي التاريخ تراثاً أعجم ، وتتجمد في مصنفات محدودة لا يتداولها إلا المتخصصون القاصدون ، وتتوالى على لغاتهم الناشئة موجات من التطور ، تطوي معالم الأصول القديمة في اللفظ والدلالة والتركيب والتقعيد ، وتضع بين الحاضر اللغوي وماضيه حجباً من التغير والتبدل ، ومعاجمَ خاصة تحل الرموز والغياهب .

وفي الوقت نفسه ، يدرس العربي والمستعرب نصوص الجاهلية والإسلام في كل مدرسة ومعهد وجامعة ، وتتقارب وسائل التعبير بين البلدان العربية ، حتى تصبح في الميادين الأدبية والعلمية والفنية والسياسية موحدة أو كالموحدة ، يتداولها الجميع بيسر وطلاقة ، ويدرك مقاصدها وظلالها أبناء كل مدينة وقرية .

وشارك هؤلاء الدارسين الأعاجمَ في شعورهم وخيبتهم بعضُ الدارسين العرب ، الذين لم يستطيعوا إتقان السديد من العربية ، أو لم يفهموا حقائق علوم اللغة ، أو جرفتهم زعازع الشعوبية والاستعجام ، فراحوا ينددون بالواقع اللغوي للعربية ، ويتهمون الفصحى بالتخلف عن ركب الحضارة ، ويصفونها بالافتعال والزيف والتصنع للبقاء ، ويرون في اللهجات الإقليمية ما هو واقعي أحق بالسيادة والعناية والانتشار .

لكأنَّ لسان حال أولئك وهؤلاء يقول : إذا كانت جميع اللغات تخضع ، لناموس الحياة والتشتت والبلى ، فلماذا خرجت عليه لغة العرب ؟ أتَثبتُ أمام الأعاصير والنكبات والقرون ، وتتجاوز أمواج الأعجمية والعامية ، لتستعيد نشاطها وحيويتها من جديد ، وتعيش في دورة نماء ثانية ثم ثالثة ورابعة وخامسة ... وتخلد على الزمن ، فتصير بدعاً من الكائنات في هذا الوجود ؟

إنها بذلك تحطم أسطورة النواميس الاجتماعية ، وتتجاهل قيود الطبيعة والتاريخ . إنها إذاً واقع غريب ، يطوي في جنباته أسرار بقائه وتميزه . فلماذا تتحدى سنن الحياة ، وتكون لغة متجددة خالدة ؟

أسرار التجدد والخلود :

الحق أن لغة العرب لا تخرج ، في تجددها ، على سنن الحياة . بل هي تعايشها وتحقق مقاصدها وصورها ، في العالم اللغوي . ذلك أن الله ـ تعالى ـ الذي وضع نواميس الكون وسبل استمرار الوجود ، وصيرورة الكائنات ، اختار لكل رسالة مِن الرجال مَن يناسبها في قدراته المادية والمعنوية ، ويستطيع أن يحمل تبعاتها ويبلغها ، وينشرها في الفترة المحددة لها ، ثم أنزلها باللغة التي تناسب تلك الحقبة ، وتنقل إلى الجماعة المبلَّغة فحوى الرسالة ومقاصدها ، في الحدود المكانية والزمانية الراهنة .

ولذا كان في قدماء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من عُمِّر مئات السنين ، أو مَثّل

البطولة الجسدية الخارقة ، أو طغت عليه الوداعة البالغة ، أو مارس الإعجاز المادي القاهر . ولذا أيضاً عاشت النصوص السماوية الأولى وما بعدها في حيزها تبلغ الرسالة ، ولا تجد مَنقصة في اختصاصِها بطبقةٍ من الأحبار والرهبان ، أو في حياتها مترجمةً إلى لغات مختلفة ، وغياب نفاذها في طبقات المجتمع واللغة الأم التي أنزلت بها .

لقد عرفت هذه الحقيقةَ جميعُ الرسالات السماوية ، ما عدا الإسلامَ . فقد اختار الله ـ سبحانه ـ لهذه الدعوة ، وهي خاتمة الدعوات ومُعَدّة للخلود ، رسولاً يحمل في شخصه الكريم خصائص الحضور التاريخي الأبدي ، ولغةً تتمتع بالقدرات على التولد والاستمرار ، أمام عوامل التأثير والتغير ، وصعاب الكوارث والتحديات . هذا هو السِّرُّ الأول .

وقد أيده الله ـ عزّ وجلّ ـ بسرٍّ ثان ، هو نص ربّاني معجز ، تكفَّل بحفظه وخلوده ، واستقطب فيه قدرات العربية الكامنة ، ومثَّلها أرفع تمثيل ، ونفحها مقومات الديمومة والأبدية . فهو ـ أعني القرآن الكريم ـ لا يختص بطبقة من الكهنوت تردده وتعظ به وتتوارثه ، ولا يخاطِب قِطاعاً من المجتمع معيناً يمتاز بالعلم ويدرسه بمعارفه ومنجزاته ، ولا يجتذب رجال الأدب وحدهم ليحفظوه ويتأثروا جماله ... بل يواجه الناس جميعاً بمختلِف قطاعاتهم وأجناسهم ومواطنهم وحقبهم ، ويفرض نفسه عليهم نصّاً في الدين والخلق والعبادة والسلوك والعمل . فهو لا يكون قرآناً إلاّ باللغة العربية ، ولا تُعرف أحكامه ومقاصده ودقائقه إلا كما أُنزل وسُجِّل وثَبَتَ .

إنه تُتلى آياته صباح مساء ، وتُحفظ في الصدور والألسنة والكتب بلفظها وعباراتها وصور أدائها ، أُذناً لفم ولساناً لقلب ، وتُردد في الصلوات الخمس يومياً كما أُنزلَتْ ، وفي مجالس العلم والأدب والقضاء والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم للتسديد والإرشاد ، ويتبارى الأطفال والشيوخ والشبان في تلقّيها وإتقان ترتيلها وفهمها في كل صقع وزمان ، ويستمد من دقيق تعبيرها العلماء ضوابط العقيدة

والعبادات والأخلاق والمعاملات المحلية والدولية ، ويولدون منه أصول علوم العربيـة في مستـويـات الْمُعجم والصـوت والصرف والإعراب والبـلاغـة ، ويعتمـد أسـاطين الفكر والمنطـق أسـاليبهـا في الحِجـاج والتفكير والاستـدلال القـويم ، ويـأتمّ رجـالات الأدب بفصاحتها وبيانها في إبداع الأشعار والخطب والرسائل والقصص والمقـالات والمحـاورات وفنون القول وصور الكلام ، ويتتبع أبناء العِلم أسرارهـا لإصـدار البحوث والـدراسـات والمصنفات ، على مدى القرون والأجيال . مما ولد مئـات الآلاف من الكتب والرسـائل والدواوين والوثائق ، في جميع مظاهر الوجود ومرافق الحياة .

ومـا زالت مسيرة الاستمـداد منـه والتتبـع تعيش في المحـافـل المحليـة والـدوليـة ، والجـامعـات العربيـة والأعجميـة ، وأوسـاط الفن والعلم والاقتصـاد والمـال والسيـاسـة والقضـاء ... حتى لترى الآن مئـات الكتب وعشرات المعـاجم العلميـة المتخصصـة قـد صُنِّفت من مَعِينـه في مختلِف الفنون والعلوم والمهن والمجـالات . كل ذلـك بـالاعتماد على حضور القرآن الكريم ، وقدرات العربية في القياس ، والاشتقـاق والتصريف ، والنحت والتركيب ، والاشتراك والتَّضاد ، والمجاز والمصطلح ، والترجمة والتعريب .

ولو أنك تصفحت المصنفات والمجلات والصحف المعاصرة لاستقبلـك آلاف المفردات والعبـارات المتجـددة ، التي استوعبت الفكرَ الحـديث المتطور ، والعـواطفَ الإنسـانيـة والقومية والشخصية ، والمشاعرَ الدقيقة والعميقة ، والصورَ الفنية الأخّـاذة ، وانبثت في طيات أخواتها التراثية التليـدة ، وتعـذر على القـارئ أحيـانـاً تمييزهـا منهـا . فهل هـذا خروج على سُنن الحياة ؟

نقول : لا ، بل هو منها وفيها ، وتنفيذ لإرادتها ومراميهـا . فمن حقـائق التـاريخ أن في الكائنـات مَن كرَّمـه الله ـ جلّ وعـلا ـ وسخَّر لـه مـا في السماوات والأرض ، وفي هؤلاء المكرَّمين مَن خصَّه بالنبوة فكان الخليل أو النجي أو المرفوع إلى السماء أو الحبيب المقـدَّم ، وفي بقـاع الأرض بيتـاً هو أول مـا وضع للنـاس وخلـدت في قلـوبهم قـدسيتـه

وهواه ، وفي مطاوي السَّنة ليلةً هي خير من ألف شهر . بل إن في خلايا أكثر الأحياء ما هو راق يتوضع مراكز محددة ، وتكون له السلطة العليا أبداً .

واللغة العربية التي اصطفاها الله ـ تعالى ـ لكتابه ودينه ليست بدعاً من الكائنات هذه . فقد أغناها قدماء العرب بالأصول المُنجِبة المولِّدة ، وزودوها بالغنى وعناصر البقاء ، ثم حصَّنها الله ـ سبحانه ـ بهذا الدين الحنيف تخدمه وتوصله إلى الناس ، وتعيش معه وتنمو بنموه وتضعف بضعفه ، ما كان له أتباع وأنصار .

فالمسلم العربي ، أيّاً كان علمُه وثقافته ومهنته واهتمامه ، يتعبد بالقرآن ويحتكم إليه في جميع أعماله ومراحل حياته ، ويردِّد آياته ويحفظها ويسمعها ليل نهار ، ويتفنن في أشكال الاهتمام بها ... فهو إذاً مع العربية الفصحى شاء أم أبى ، يتعلمها ويتقنها ويمارسها . وكذلك حال المسلم الأعجمي ، مع خلاف يسير .

ولذا ترى الآن المسلمين العرب ، مثقفين وأُمِّيِّين ، يسمعون الإذاعات العربية الفصيحة ، والأشعار والخطب والأحاديث ... فيدركون مراميها ومقاصدها ، كانوا من المشرق أو من المغرب ، ويتبادلون الكتب والرسائل والمخاطبات بكل دقة وعفوية ، وإن كان لدى كل منهم لهجة إقليمية أو محلية .

لقد تكفل الله ـ جلّ وعلا ـ حفظَ القرآن الكريم ، فكان في ذلك حمايةٌ للعربية . فالقرآن مصون ما دام في الوجود بشر ، والعربية محفوظة وخالدة ما دام هذا القرآن العظيم ، ومهارات عروبة اللسان متجددة في كل أوان . ذلك لأن العلاقة صميمية خَلْقية بين دين الله وعروبة الإنسان ، والحياة متواصلة بينهما في قنوات ربّانية قاهرة : بعزة الإسلام يعتز العرب ، وبنصر العروبة الصافية ينتصر الإسلام . هما توءمان متلاحمان : وُلِدَتِ العزّة العربية برسالة القرآن ، وستبقى هذه التوءمة تؤاخي كل زمان .